الشعر العربي والذوق المعاصر

الدكتور محمد كامل حسين

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
ثروت أباظة

الشعر العربي والذوق المعاصر

الدكتور
محمد كامل حسين

* الاخراج الفنى : مكرم شحاته

* الغلاف تصميم الفنان : جوده خليفة

مقدمة

لم يستقر لى فهم الشعر العربى الا حين قدرت انه على ضربين، سعر الاحتراف وشعر الطبع ، وهما يختلفان اختلافا شديدا فى الروح والموضوع والاسلوب والاغراض . ولنا ان نعدهما فنين متباينين لا يجمع بينهما الا أن كليهما كلام منظوم على نحو واحد .

وليس من الضرورى فى شعر الاحتراف ان يكون صاحبه قد تكسب به فعلا ، وان كان أكثره عاد على الشعراء بالصلات السخية ، وانما أعنى به الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أشياء لا تمس اعماق نفسه ولا تصدر عن عواطفه . وعمل الشاعر فى هذا الشعر اشبه الأشياء بعمل الصائغ الماهر الذى يعنيه أن يخرج حلية جميلة تدل على المهارة ودقة الصناعة ، ولا يدعى احد ان الصائغ بهذه الصياغة الماهرة يعبر عن نفسه ، واكثر الشعر القديم من هذا التراث . وكان النقاد القدماء يعنون بهذه الدقة والمهارة ويعجبون بها ، ولهم الحق كل الحق فى ان يعجبوا بما يروقهم ، ولكنا لا نستطيع ان نجاريهم فى استحسان كل ما استحسنوه ،ولا ان نقيس جمال الشعر بالمقاييس التى وضعوها

لتقدير هذا الجمال ، بعد ان تغير رأينا في هذا النوع من الشعر ، شعر الاحتراف .

اما شعر الطبع فهو الذى يتحدث فيه الشاعر عن احساسه وعواطفه وما يشعر به من حب او كره وما تركت فيه الحياة من اثر ، والدافع اليه صدق العاطفة وحسن الأداء الذى يحمل القارىء على ان يتأثر بهذه العواطف كما تأثر بها صاحب الشعر .

شعر الاحتراف اعذبه اكذبه ، والجمال فيه يرجع الى الصياغه ، ولم يكن يراد منه الا أن يكون حلية يفخر بها الممدوح ويزين بها صدره . والعبرة فيه بذوق الممدوح . فهو الذى يحدد ما يستحسنه ، وهو يجزى الشاعر على قدر هذا الاستحسان ، ولم يكن منهم من يعنيه أن يعرف شيئا عن عواطف الشاعر او احساسه ، بل لعلهم كانوا يضيقون صدرا بمثل هذا القول اذا حاول الشاعر أن يقحمه على قصيدته .
ومن هنا كان شعر الاحتراف يعنى بالمحسنات اللفظية او المعنوية التى يرجى لها الذيوع ، فتسير في الآفاق ويتحدث بها الركبان ـ على حد قولهم ـ ومن ثم اسرف الشعراء في الغوص على المعانى البديعة التى لا تعني في الواقع شيئا ، وعنوا بالتشبيهات الغريبة واكثرها معاد في معناه والفاظه . هذا سر ما دعا اليه القدماء من التمسك

بعمود الشعر ، وهو ما نسميه فى العصر الحاضر الاكلاشيهات .

اما شعر الطبع فاعذبه اصدقه ، واجوده خال من المحسنات اللفظية او المعنوية ، واسلوبه مستقيم واضح ، فيه جد وصرامة وعواطف انسانية يدرك صدقها اكثر الناس ، وهو ما لا نراه فى شعر الاحتراف الذى اكثره محلى موقوت، ولا يمكن أن يصبح ذا قيمة انسانية عالمية . واذا كان اكثر الشعر العربى القديم شعر احتراف ، وكان فحول الشعراء يتفاضلون بما فى شعرهم من صنعة ، فالعصر الحاضر يابى ذلك تماما . ويفضل عليه شعر الطبع . وعلينا ان نقدم الى المتعلمين المعاصرين ما فى الأدب العربى من شعر له قيمته الانسانية العامة ، وان ندع شعر الاحتراف للمتخصصين ولمن يستهويهم هذا النوع من الجمال ، وهم قلة فى عصرنا هذا ، ولا أعنى بشعر الطبع ما كان القدماء يصفونه بانه « الشعر المطبوع الذى يغرف فيه الشاعر من بحر ، على حين ان غيره ينحت من صخر » هذا كلام عام لا يغنى شيئا فى اقبال الناس على الشعر القديم او الاعجاب به . ومن شعر الاحتراف ما هو جيد وما هو دون ذلك ، وشعر الطبع فيه الجيد وفيه الغث، ولكل من هذين الفنين مقاييس تختلف عن مقاييس الجمال فى الفن الآخر .

وسنبدا بشعر الطبع لانه اقرب الى عقولنا واذواقنا ، والمثقفون احرى ان يفهموه وقد يقبلون عليه بعد ذلك ، وقد يتبع هذا الاقبال شيء من الاعجاب اوالحب لهذا اللون من الوان الادب . وسنذكر بعد ذلك شعر الاحتراف الذى لا يعجب به فى العصر الحاضر الا الذين دربوا على هذا الشعر وخصائصه .

المعلقات

يظن أكثر الناس أن المعلقات من الشعر القديم الذى يصرفنا عن تذوقه ما فيه من غريب الكلام وعجيب التشبيهات ، وليس هذا صحيحا ، واذا اخترنا الأبيات التى تتفق وأذواقنا فسنجد أن كثيرا منها من شعر الطبع الذى لم تفسده العناية بالصياغة .

ولا أريد أن أتناول بالبحث تاريخ الأدب ، فهذا علم له علماؤه ؛ وأكثر عنايتهم تتعلق بالمذاهب المختلفة ، ويتأثر كل مذهب بما سبقه ، وأثره فى المذاهب اللاحقة ، ونراهم يرجعون فى ذلك الى المقارنة بين اللهجات ومذاهب التفكير ، وهى بحوث طريفة ، وقد تكون ضرورية فى معرفتنا بالأدب معرفة كاملة ، ولكنها لا تزيد فى قدرتنا على تذوق الشعر أو تقدير الشعراء . وسنقصر بحثنا فى المعلقات على ايضاح ما فيها من شعر الطبع . ولن نبحث فى ما يقال عن الشك فى نسبة القول الى قائله ، وسنعتمد فى الأغلب على ما يدل عليه الشعر من تكامل شخصية الشاعر ، واتساق عقليته وما يكون من أثر ذلك فى احساس الناس عامة بأن هذه خبرة انسانية حقة .

قيل أن المعلقات سميت كذلك لأنها علقت على أستار الكعبة، ولا احسبها علقت فعلا عليها في أي وقت من الأوقات . وانما هو نوع من التقدير ، كأنهم يقولون انها جديرة ان تعلق على استار الكعبة . ويذكرني ذلك بأثر من آثار فلورنسا له أبواب سميت ابواب الجنة . والسبب في اطلاق هذا الاسم عليها أن احد كبار الفنيين مر بها يوما فقال هذه ابواب الجنة فأطلق هذا الاسم عليها منذ ذلك الحين .

يشك الكثيرون في نسبة بعض ما جاء في المعلقات الى من ينسب اليهم (١) . وفي روايتها اضطراب واختلاف كثير ، وزيادة في بعض أبياتها ونقص في البعض الآخر . ظاهرة الشك في نسبة الشعر القديم الى قائله معروفة في تاريخ الآداب القديمة عند أكثر الأمم . والشعر قبل عصر التدوين يقوم على الذاكرة وحدها والخطأ فيها كثير ، عن قصد أو غير قصد ، والشك لا ينقص من قيمة هذه الروايات من حيث هي في كثير من الحالات تمثل روح العصر تمثيلا صادقا .

وقد علمتنا العلوم الحديثة التي تسود عقلية هذا العصر أن الحقيقة التاريخية هي وحدها الجديرة بأن تسمى حقيقة . والواقع أن هناك أنواعا أخرى من الحقيقة مثل الحقيقة النفسية والشعرية والجمالية ، وان لم يكن من الضروري أن تكون امورها قد وقعت فعلا . وأذكر أن (جوته) له رأي في هذا الموضوع . فهو يقول أن عبارة « ايتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك » تدل على نفسية العصر الذي يقال أنها قيلت فيه ، ويجب أن نعدها صادقة وان كانت نسبتها الى قائلتها (مدام رولانت) مشكوكا فيها . وهو يقول كذلك « اذا كان الرومان من عظمة

---

(١) الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين .

النفس بحيث يخترعون قصة (لوكريتيا) فمن حقهم علينا أن تكون من عظمة النفس بحيث نصدقهم فى ذلك » .

قد يكون امرؤ القيس شخصا له حقيقة تاريخية ، وقد يكون ما يروى عن حياته قصصا وخيالا ، ولكنا نرى فى ما روى عنه شخصية متكاملة يصح ان نتعمق فى درسها ، وأن نبين ما فيها من دلالات على روح العصر الذى قيل أنه وجد فيه ، وعلى حياة المجون التى كان الشباب يعيشها فى البادية حين ذاك .

معلقة امرىء القيس لها مقام خاص عند النقاد القدامى . فكانت تضرب بجودتها الأمثال ، وكان يقال فى مدح قصيدة ما انهـا خير من « قفانبك » وهو مطلع معلقة امرىء القيس وسنعدل فى هذا البحث عن الشروح التى شرح بها النقاد قديما هذه المعلقة ولن نتحدث عن غريبهـا ولا عن تشبيهاتها واستعاراتها التى اعجب بها شارحوها .

يقوم شرح النقاد القدماء للأدب العربى عامة وللشعر خاصة على مبدا عام يسود أسلوبهم فى النقد وهو أن دراسة الأدب وسيلة لتعلم اللغة ، ونحن نرى أن اللغة يجب أن تكون وسيلة لدراسة الأدب ، والموقفان مختلفان أشد الاختلاف .

* * *

كان الشاعر يسير مع صديقين له فى الصحراء فدعاهما الى الوقوف حتى يتمكنوا من أداء حق حبيبته عليه ، وهو البكاء عند منزل بعينه يقع عند انتهـاء طريق الرمل الخفيف الذى هو طريقهم فى الصحراء (سقط اللوى) ويقع هذا الطريق بين اربع قرى سماها بأسمائهـا ، وذكر لهم ان فى هـذه القـرى أطلالا لم تتهدم (لم يعف رسمها) رغم ما هب عليها من رياح شـمالية وجنوبية كانت جديرة أن تمحوها ويعجبنى قوله (نسجتها) كان

الرياح فى هبوبها من جهتين مختلفتين تنسج الأطلال كما ينسج الثوب ، وهى صورة جميلة .

قِفَانَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ
بِسقْطِ اللّوى بين الدَّخول فَحَوْمل (١)
فَتُوضِح فالمِقْراة لم يَعفُ رسمُهَا
لِمَا نَسَجَتْها من جَنوب وشَمْأَلِ

ويأتى بعد ذلك بيت عجيب يصف فيه (بعر الآرام) الظباء فى ساحاتها (عرصاتها) وما انخفض من الأرض (قيعانها) ويشبهه بحب الفلفل . فاذا كان هذا تشبيها فهو شعر عقيم ، بل قد يكون سخيفا ، والشعراء يجب الا يعنوا ببعر الآرام ولا بتشبيهه بحب الفلفل . على أنى أرى لهذا البيت قيمة خاصة حيث جاء فى موضعه تماما ، فهو يدل على ان الأحباب تركوا هذا المنزل منذ عهد بعيد جفت فيه مخلفات الظباء حتى أصبحت جامدة . وعندى أنه يدل على صدق الواقعة ، ولو كان يريد جمال الصنعة لأغفل هذا البيت :

---

(١) شهرة هذا المقطع لا ترجع الى ما فيه من صنعة وانما ترجع الى ما فيه من تصوير صادق لحادث وقع فعلا فى الصحراء وفيه ضرورة للمسافرين فيها لا تخلو من جمال لصدقها.

ولا عبرة بما قال الشراح الذين تعودوا نقد شعر الاحتراف ، وسأسميهم بعد الآن شراح الاحتراف من ان فى البيت الاول صنعة جيدة ، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الاحباب والمنازل فى شطر بيت واحد ، وهو نقد لا نرى فيه دليلا على جمال خاص . ولا عبرة بقولهم أن الرياح كانت تهب من ناحية فتغطى الرسوم بالرمال ، ثم تهب عليها الرياح من جهة اخرى تذهب بما غطى المنازل من رمال اذ ليس فى هذا تصوير جميل .

تَرَى بَعَرَ الآرامِ فى عَرَصاتِها وقيعانها كأنّه حَبُّ فلفل

* * *

احسب أن هـــذه المعلقة ليست الا مجموعة من المقطوعات الصغيرة ذات الأبيات القليلة ، جمعت بعد ذلك لأنها على وزن واحد وروى واحد (١) . والحوادث التى يصفها الشاعر مستقلة بعضها عن بعض وان كان اكثرها يتعلق بمغامراته مع النساء .

يبدأ الحديث عن مغامرات امرىء القيس بدعوة صديقيه أن يمرا معه على أم جندب ليقضوا حاجات (لبانات) الفؤاد المعلل . واظن ان أم جندب هذه كانت لها دار فى الصحراء يؤمها الشباب ليشربوا ويمرحوا ويعبثوا كما يشــاء لهم العبث . وهناك يحكى الشبان مغامراتهم . ومثل هذه البيوت كانت معروفة عند العرب وعند غيرهم من الأمم القديمة حيث كان البغاء أمرا معترفا به . وقد نهى القرآن الكريم عن ارغام الفتيات على البغاء ان اردن ان يتعففن عن ذلك .

---

(٢) يرجع ذلك الى ان فيها عددا من الابيات تشبه مطالع القصائد تكون القافية فيها واحدة فى شطرى البيت مثل قوله .

أَلَا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا انجلى

بِصُبحٍ ، وما الإِصباحُ منك بأَمثَلِ

وقوله :

أَفاطِمُ مَهلاً بَعضَ هَذا التَدَلُّلِ

وإِن كُنتِ قَد أَزمَعتِ هَجرى فَأَجمِلى

ولا اسمى هذا تصريعا لاختلاف المعانى اختلافا تاما .

خليلى مرّا بى على أم جندب[1]
لأقضى لُبانات الفؤادِ المعذّل

وتأتى بعد ذلك مغامرات كثيرة أولاها ما ذكره من حادث وقع له مع بعض العذارى .

وكان هذا يوما مشهودا لم يستطع امرؤ القيس أن ينساه ، ولا شك أنه ذكره ليفاخر به أقرانه . وخلاصة هذه المغامرة أنه لقى فى احدى رحلاته فى الصحراء بعض العذارى ، فذبح لهن مطيته ، وأهل البادية يعدون ذلك كرما ليس بعده كرم ، لأنه يضحى بمطيته التى تحمله فى أسفاره . وعجبن من رحلها (المتحمل) ثم يقول أن العذارى كان يرمى بعضهن بعضا بلحمها وشحمها الذى كان كأطراف الحرير المفتول (كأهداب الدمقس المفتل) . وقد عكف شراح شعر الاحتراف على تفسير هذه الكلمات ، أما نحن فتعجبنا الصورة المرحة التى فى هذين البيتين ، وكأنا نراهن يتضاحكن ويجرين ويرتمين باللحم فى سرور واضح ، وهى صورة مشرقة تعجب المحدثين اكثر مما يعجبهم تشبيه الشحم بالحرير المفتول . ولا اشك أن هذه المغامرة وقعت

---

(1) ذكر امرؤ القيس ام جندب فى قصيدة اخرى على انها من النساء المحجبات وانها كانت تتفوق على اقرانها بالخفر ، وسنرى فيما بعد ان امرأ القيس كان ينخدع كثيرا بالنساء فيظن صاحباته من الخفرات ارضاء لنفسه وكبريائه .

فعلا ولا نجد مثلها كثيرا عند غيره من الشعراء . (١)

ويذكر الشاعر بعد ذلك مغامرة له مع عنيزة ، ولا يعنينا ما يدعيه الشراح من أنهم يعرفون عنيزة هذه ، وانما يعنينا أنه دخل عليها الخدر أو الهودج الذى كانت فيه فوق بعيرها ، ولم تقابل عنيزة دخوله عليها بالرضى (لك الويلات) . حسب امرؤ القيس ان هذه عبارة تودد كما يقال قاتلك الله ، ثم ظهر له أنها تريد منه أن ينزل ، لأنه سيعقر بعيرها لثقل حملهما عليه . ولم يرض الشاعر عن هذا العذر وقال لها سيرى وأرخى زمام البعير حتى لا أحرم رضابك (جناك المعلل) .

ويومَ دخلتُ الخِدرَ ، خِدْرَ عنيزةٍ
فقالتْ لك الويلاتُ إنك مُرجلى
تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معا
عقرتَ بعيرى يا امرأ القيسِ فانزل
فقلتُ لها سيرى وأرخى زمامَهُ
ولاتُبعديني من جَنَاكِ المعلل

---

(١) وردت مثل هذه القصة فى بعض احاديث الفرزدق . وفى راينا ان الفرزدق انتحلها او انتحلت له لأنه كذلك كان فى حاجة الى ذكر مغامرة ناجحة . وزاد الرواة ان ذلك حدث حين كان العذارى يسبحن فى بركة ماء وانهن تركن ثيابهن ، فاخذها امرؤ القيس ليرغمهن على الخروج عاريات . وهى حيلة كانت جديرة ان تغضب العذارى لو كن بريئات ، وهو ما لم يحدث . والقصة على هذه الرواية ليست مقبولة تماما لان احدا لم يغضب لهذه الحيلة غير البارعة .

ولعل امرا القيس ذكر انهن عذارى حتى يكون موقفه منهن موقفا بريئا ، اذ لم يكن له مارب عندهن كما سنبين ذلك فى ما بعد .

وغضب امرؤ القيس لموقفهـا منه وقال لها كيف لا ترضـين بقربى ، مع أنى قد أطرق بيت الحامل والمرضع فالهيها عن طفلها الرضيع الذى لم يتجاوز العام عن عمره (ذى تمائم محول) ويجىء بعد ذلك بيت ظاهره فيـه فحش ولا يقـول بفحشـه الا صاحب خيال مريض ممن لا علم له بالنسـاء ، وهو بيت برىء جدا لا يعنى الا انى الهيتهـا عن رضيعهـا ، فلمـا بكى تحولت اليه وبقيت مع ذلك على حالها من مجلسها لتستمتع بحديثى ، وهو نوع من التفاخر ورد كثيرا فى شعر امرىء القيس عند ذكر مغامراته مع النساء :

فمثلكِ حُبلى قد طرقتُ ومرضعاً
فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا ما بكى من خَلفها انصرفت له
بشقٍّ ونحوى شقُّها لم يحول

ثم وقع له حادث مع فاطمة ولم يكن الحديث بينهما لينـا ولا عذبا ، ولا أشك انهـا كانت من أنداده فلم تكن من نوع المستهترات اللاتى يذكرهن امرؤ القيس فى مغامراته العديدة التى ذكرها بعد ذلك . يقول لها انه ضجر بتدللها حتى أصبح لا يطيقه، وان كان على حبه لها باقيا . وطلب اليها فى جـد وصرامة أن تحسم الأمر بينهما ، فاما هجر واما وصال . فان كان هجرا فلتكن معه رقيقة فى هجرها له (اجملى) . وهو يسألها فى كثير من الدهشة هل ساءتها منه خليقة ، فان كان قد وقع منه شىء يغضبها ولا يعرفه هو ، فلتقطع ما بينهمـا من ود غير موصول ولا مقطوع . والتساؤل هنا جميل يدل على أنه لم يخطر ببـاله أن

يسيء اليها . وابلغ من ذلك انه يدل على انه لا يعرف ان كان اساء اليها ام لا .

أفاطم مهلاً بعضَ هذا التدلُّل
وإن كنتِ قد أزمعتِ هَجْرى فأجملى

وإن تَكُ قد ساءتكِ منى خليقةٌ
فسلّى ثيابى من ثيابكِ تنسل

يأتى بعد ذلك البيت الذى يقول فيه :

وإنك قَسَّمت الفؤادَ فنصفه قتيلٌ ونصفٌ فى حديد مكبَّل

مثل هذا القول لا قيمة له وهو مصنوع من غير شك وصانعه لا علم له بالشعر ، وهو كلام معاد لا غناء فيه .

أما البيت الذى يقول فيه :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهمَيْكِ فى أعشار قلبٍ مقتَّل

قد يكون فى هذا البيت جمال وان كان كلاما مألوفا ، والواقع انه لا موضع له فى الحديث بين الشاعر وصاحبته التى اسرفت فى التدلل عليه والتى يخاف هجرها لا يمكن أن تكون قد ذرفت عيناها بالدمع ولا يمكن ان تكون قد ضربت بسهميها فى قلب حبيبها المقتل .

* * *

جرب امرؤ القيس حظه مع الخفـــرات البيض فأخفق في اجتذابهن اليه ، وبعد ان يئس من مثل عنيزة وفاطمة اخذ يتودد الى نوع آخر من النسـاء ، ظنا منه انه سيجد لديهن من الاقبال عليه ما لم يجده عند هؤلاء .

من ذلك انه روى قصة وقعت له مع امراة عفيفة محجبة (بيضــة خدر) من اللائى لا يجرؤ احــد على أن يدخل عليهـــا خيمتها (لا يرام خباؤها) وانه تمتع باللهو معها فى غير عجلة (غير معجل) ، وانه تجاوز اليها الأحراش ، وانه كان حــول خبائها رجال أشداء حريصـــون على قتله سرا (يسرون مقتلى) لو استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وبيضه خدر لا يرام خباؤها تمتعتُ من لَهْوٍ بها غير معْجَل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علىَّ حراصا لو يُسرون مَقْتَلى

ثم قال انه صعد الى خبائها بعد ان خلعت ثيابها استعدادا للنوم (نضت لنوم ثيابها) ، فوجدها خلف الستر وليس عليها الا قميص النوم (لبسة المتفضل) . فلما لقيته عتبت عليه انه لا يزال على غوايته القديمة ، وانه لا يزال صاحب حيلة وهو كلام يقوله النساء جميعا يردن بذلك اظهار اعجابهن بشجاعة الرجال .

فجئتُ وقد نَضتْ لنوم ثيابها لدى السِّتر إلا لِبسَةَ المتفضل
فقالتْ يمينَ اللهِ ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنكَ الغَوَاية تنجلى

ثم تأتى بعد ذلك ابيات فيها بعض الغريب وفيها اسم الشعب الذى سارا اليه (بطن خبت) والشراح القدماء يبذلون جهدا فى شرح هذا الغريب ولا نرى ان ذلك يفيد كثيرا فى فهمنا للصورة الشعرية التى ارادها الشاعر . وكل ما اراده هو ان يقول انه

خرج مع حبيبته المخدرة وخرجا من ساحة الحى ، وكان ثوبها فضفاضا طويلا أرادت به ان تمحو آثار اقدامهما حتى لا ينتبه اهلها الى ما فعلته بالليل .

ولما اصبحا وحيدين جذب اليه جانبى شعر راسها (هصرت بعودى راسها) وانها تمايلت عليه بخصرها الدقيق (هضيم الكشح) وساقها العبلة (ريا المخلخل) . والذى يعنينا من هذه الحادثة ويدل على صدقها أنها مما لا يعبا به الرواة ، ولا يختلقها المختلقون ، وعليها كل سمات الصدق . ولكنا نعجب كيف خدعت هذه المراة امرا القيس فحسب انها من المخدرات ، ولا يحتاج الانسان الى ذكاء خارق ليعرف ان المراة التى تجر وراءها ثوبها الطويل لتخفى على الناس ما تفعله بالليل لا يمكن ان تكون الا محترفة . وكان امرؤ القيس يقصد الى اقناع نفسه انها بيضة خدر يستعيض بنجاحه معها عن اخفاقه مع الشريفات حقا . ليست هذه الواقعة من النوع الذى يعنى به شعراء الاحتراف فيختلقها الرواة ، فهى صادقة من حيث انها تتفق ومزاج الشاعر وطبيعة الفاجرات وحرصهن على ارضاء الرجال ولو بدعوى الخفر والشرف .

اما كل ما جاء فى المعلقة بعد ذلك من وصف المراة فهو من الكلام المالوف الذى يستطيعه كل ناظم ، وكذلك وصفه لحصانه وأن له مجزا كالظبى وساقا كالنعامة فهذا من عبث القول الذى يستطيعه كل عالم باللغة . على أن الكلمات سجنجل وعقنقل وتدفل اخترعت اختراعا لتتفق مع القافية ، ولا اظن لها أصلا فى اللغة ، ومثلها فى شعر الاحتراف كثير ، أما ما جاء بعد ذلك فى المعلقة من وصف للبرق والجبل والوشى اليمانى فلا يتفق مع مزاج امرىء القيس ولا مع طبيعة تفكيره وهو ـ مصنوعا كان ام غير مصنوع ـ من شعر الاحتراف الذى لا يعبا به احد من المثقفين المعاصرين .

وفى المعلقة بيتان يشير فيهما الى الرهبـــان حيث يقول فى أحدهما عن حبيبته أنها :

تضئُ الظلامَ بالعشاء كأنه منارةُ ممسى راهبٍ متبتل

والبيت الآخر قوله :

يضيءُ سناهُ أومصابيحُ راهبٍ أهانالسليطَ بالذُبال المفتّل

على هذين البيتين مسحة من الصدق تدل على أن امرأ القيس كان يعرف الرهبان وكانوا كثيرين على مشارف الشـــام مما يلى الجزيرة العربيـــة . واظن ان شعر الاحتراف لم يكن ليلجأ الى مثل هذه التشبيهات ، وانما يلجأ اليها من راىالرهبان وانوارهم فى الليل فعلا .

وهناك قصيدة اخرى لا تقل شهرة عن المعلقة ، بل قد تكون ادل على شخصية امرىء القيس وحقيقة مغامراته مع النساء . يروى الشاعر فى هذه القصيدة أنه سعا الى محبوبته بعد ما نام أهلها . وعقب على ذلك بتشبيه غير ذى قيمة حيث يقول ان ذلك كان كسمو حباب المـــاء . فقالت له ما تعود النساء الفاجرات أن يقلن فى مثل هذه المواقف ، اذ حذرته من الناس الذين يسمرون بالقرب منها ، وانهم قد يعرفون مجيئه اليها . ولكن امرأ القيس لم يعبأ بهذا التهديد ، ولعله كان قد عرف قيمته من قبل . وأقسم لها انه سيبقى عندها ولو قطعوا رأسه وأوصاله عندها . ثم سمع زوجها فى حجرة قريبة يغط فى نومه كما يغط البعير الصغير حين يشد خناقه ، وبات ليلته معها على خير ما يريد ، لأنه يعلم أن زوجها ليس بقتال ، وانه على كل حال لن يستطيع قتله ومعه سيفه ورماحه الحـــادة التى هى كأنيـــاب الأغوال . والظاهر ان الأخلاق العامة والآداب لم تكن مرعية فى الجاهلية ،

ولا ادرى هل كان هذا الزوج فخورا أن أميرا كامرىء القيس يتعشق امـراته ، أو أنه كان من الذين يريدون ابتزاز المـال من عشاق ازواجهم . على كل حال نرى أن هذه القصة وقعت له فعلا ، وذلك لأن شعراء الاحتراف لا يعبأون بمثل هـذه التفصيلات .

وفى القصيدة بيتان يوضحان سرا فى تاريخ حيـاة امرىء القيس نسميه اليوم العقدة النفسية ، وكان لهما فيه أكبر الأثر ، وذلك حيث يقول ان امراة بعينها وصفته بانه لا يحسن السر الذى يكون بين الرجال والنساء ، واشفقت عليه فقالت أن ذلك لكبر سنه ، وليس هذا من الأمور التى يتناولها شعراء الاحتراف ورد عليهـا امرؤ القيس ردا عنيفـا اذ رماها بالكذب صراحة ، فانه لا يزال يستطيع أن يغرى العرس عن عريسها . وزاد على ذلك عبارة غريبة جدا ينفى فيها أن تكون امراته من اللائى يتحدث منهن الرجال ، فهى تجد فيه كل ما تصبو اليه نفسها ولا معنى لهذه العبارة الا ان يكون قد سمع همسا ان امراته ليست مخلصة تماما له .

واراد الشـاعر أن يتحقق من موقفه معهن فسـأل فاجرة عاهرا عما يكره النساء منه ، فوصفته وصفا مشهورا لا يتقنـه الا العاهرات ولا محل لذكره هنا .

كل هذا يدل على أن شعر امرىء القيس فى المعلقة وفى هذه القصيدة بالذات لم يكن شعر احتراف ، على الأقل فى الأجزاء التى ذكرناها ، أما ما بقى بعد ذلك منها فهو فى الغالب من عمل اللغويين المغرمين بالغريب وهو ما يتفق مع عقلية شعراء الاحتراف ورواده .

عمر بن أبي ربيعة

كان العصر الأموى عصرا ازدهر فيه شعر الاحتراف ، وكان اعجاب الخلفاء والعلماء والنقاد مقصورا على من كانوا يسمونهم فحول الشعراء من أمثال جرير والفرزدق والأخطل ، وكلهم من كبار شعراء الاحتراف . ولم يكونوا يحفلون بشعر الطبع ولا بشعرائه من أمثال عمر بن أبى ربيعة الذى شهد الدولة الأموية كلها .

وليس هذا عجيبا . فالخلفاء وكبار رجال الدولة كانوا يجزلون العطاء لشعراء الاحتراف وحدهم ، وكان الجمهور يتذوق المبالغات والاستعارات البعيدة والتشبيه الغريب وما كانوا يسمونه المعانى العويصة ، فكان ذوق الخلفاء وذوق الجمهور عاملين على نشر شعر الاحتراف . وليس لنا أن نعيب على أهل ذلك العصر ذوقهم الخاص ولكنا نعيب على من جاء بعدهم انهم قيدوا أنفسهم بذوق شيوخهم السابقين ، لأن هذا لا يتفق وطبائع الأشياء ، ويقف بالحياة الفكرية عند حد لا تعدوه .

لم يكن هذا الموقف خاصا بالأمة العربية ، نرى ذلك فى حياة الامم كلها ، فكان الملوك والأمراء ـ الى قبيل العصر الحديث ـ اكبر المشجعين للفن والفنانين . ولما كان فن القول عامة والشعر خاصة هو اكبر فنون الأمة العربية فكان طبيعيا أن يقوم على تشجيع الخلفاء والأمراء .

لم يعترف كبار الشعراء الأمويين بشعر عمر بن أبى ربيعة لأنه لا يتفق مع شعرهم ، ولم يعدوه من الفحول . ولما ذاع صيته وكثر شعره الغزلى غيروا من بعض رايهم فيه (١) . قال عنه جرير « ما زال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر » . وقال عنه الفرزدق حين سمع بعض غزله « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار » .

والعجيب أن عمر بن ابي ربيعة لم يخضع للعوامل الاجتماعية التى رفعت شعر الاحتراف الى الذروة . قيل ان سليمان بن عبد الملك قال لعمر « ما يمنعك من مدحنا » ؟ قال « انى لا امدح الرجال ، وانما أمدح النساء » . ولو أن كبار الشعراء العرب عدلوا عن شعر الاحتراف واهتدوا بشعر الطبع الذى يمثله شعر عمر لاتخذ الشعر العربى طريقا غير التى نعرفها .

وسأتناول بالبحث مسألتين : الأولى نوع المغامرات التى يحدثنا عنها عمر فى شعره ، والفرق بينها وبين مغامرات امرىء القيس ، والثانية اسلوب عمر فى القصص الشعرى . فهو أول من روى قصصه شعرا ، على حين أن القصص عند العرب كان أكثرها نثرا يتخلله بعض الشعر .

رأينا عند الحديث عن امرىء القيس أن مغامراته بدأت مع المخدرات من النساء ، ولكنهن أعرضن عنه وأظهرن له عدم

---

(١) الاغاني . الجزء الاول ٦ اخبار عمر .

اقبالهن عليه ، واتهن يبرمن بتودده اليهن . فاضطر الى أن يجرب حظه مع الساقطات فلم يجد عندهن ما يحببهن فيه ، رغم جاهه وحسبه وماله الى أن ذكرن له صراحة ما يزهدهن فيه . وبذلك نرى فى شعره وروايته لمغامراته اثر اليأس وخيبة الأمل والجهد الضائع .

اما عمر بن أبى ربيعة فكان محببا الى النساء والى الشريفات منهن ، وكن يعجبن بهيئته ، مع أن الكثيرات منهن تحاشين أن يشهر بهن فى شعره فانهن كن يردن سرا أن يعرفنه وأن يعرفهن، ومنهن قريبات الخلفاء والأمراء . فلم تكن به حاجة الى أن ينحدر الى الساقطات كما فعل امرؤ القيس . ولعل هذا سر ما نراه فى شعره من سمو العواطف وما يدل عليه هذا الشعر من حب للحياة وفرح بها وتمتع بلذاتها .

ومن مغامراته اللطيفة ما حدث له مع صاحبته التى قال فيها :

ولم أَقْضِ منها محرمًا غيرَ أنّنا　　　كلانا من الثوب المُورَّدِ لابسُ

سئل عمر عن هذا البيت فقال خرجت أريد المسجد وخرجت زينب تريده ، فالتقينا فتواعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكرهت أن يرى بثيابها بلل المطر ، فيقال لها : الا « استترت بسقائف المسجد ان كنت فيه » . فأمرت غلمانى فسترونا بكساء خز كان على .

ومن طريف قصصه ما رواه عن نفسه أنه كانت عنده جارية ، اذ جاءتنى جارية برسالة من عند جارية أخرى فجعلت تسارنى، فغارت التى كنت أحدثها ، فعضت منكبى ، فما وجدت الم عضها من لذة ما كانت تلك تنفث فى اذنى .

روى صاحب الاغانى عددا كبيرا من هذه القصص الطريفة ، وعليها كثير من التشـــابه مما يحمل على الظن بأن كثيرا منهـا من نسج الخيال . ومتى كانت القصص من نسج الخيال عيبا فى الآداب القومية ؟ أليست هذه القصص أصل الروايات والمـآسى التى فخر بهـا شـعراء الاغريق ، والتى عنى بهـا الغربيون عدة قرون ، حتى أصبحت عندهم من المثل العليا للأدب ، وسنذكر بعد قليل عددا من هذه القصص وضعها عمر بن ابى ربيعة شعرا على نحو لم يسبقه اليه احد من شعراء العرب .

العناية بالقصص أمر معروف فى آداب الامم كلها وهو ضرورى للحياة الفكرية الكاملة وعنصر من أهم عناصرها . ولم يكن للعرب ان يشذوا عن هذه القاعدة . والذى أفسد علينا القصص العربى ان علماء اللغة ونقاد شعر الاحتراف اخذوا هذه القصص مأخذ الجد ، وحسبوها حقائق تاريخية صادقة . وما هى الا ارضـاء لنزعة الخيال عند العرب ، وكان يجب أن تقدر على هـذا الاساس .

كان للعرب نوعان من القصص . النوع الأول يتمثل فى ما كانوا يسمونه ايام العرب ، افتخروا فيها بالبطولة والشـجاعة التى ابدتها كل قبيلة عند محاربتها للقبـائل الاخرى ، واسرفت كل قبيلة فى هذا الفخر . وكان طبيعيا ان يتخلل هـذه القصص شعر حماسى يزيد القصة رونقا ، ويضفى عليها من العظمة ما لم تكن تستحقه فى الواقع ، حتى لو كانت وقعت فعلا .

اما النوع الثانى من القصص العربية فيمثلها شعر العذريين ، وهو شعر اسرف الناس فى الاعجاب به ، مع انه كاد يصـبح بعد فترة وجيزة شعر احتراف من نوع خاص موضوعه الغزل ، ولذلك كثر فيه الكلام المعاد والاخيلة المطروقة كالبكاء عند الفراق وزيارة طيف الحبيبة فى الليل . على كل حال كان القصص العذرى

صورا من الخيال ، وكان حتما أن يتخلله شعر الغزل . في هذين النوعين من القصص كان الغرض الأول ذكر الحوادث ، وكان ورود الشعر فيها عرضا ، وان يكن لا غنى عنه في اظهار هذه العواطف على احسن وجه .

اما عمر بن ابى ربيعة ، فهو الذى روى قصصه شعرا وهو عمل شق على الكثيرين من قبله ومن بعده ، ولا اظن ان الكثيرين اصابوا مثل نجاحه في هذا الباب . فنحن حين ندرس شعر عمر نجد انفسنا ندرس ظاهرة فريدة . والذى اخطأ فيه اللغويون والنقاد هو ما جروا عليه من عدم التفريق بين شعر الاحتراف وشعر الطبع . هذا خطأ كبير ، لأن شعر الاحتراف له معايير خاصة يقاس بها جماله ، وهي تخالف معايير الجمال في شعر الطبع . وفي اغلب الاحيان يكون شعر الاحتراف الجميل غير مقبول عند من يقدرون شعر الطبع ، وكذلك شعر الطبع الجميل لا يروق للبلاغيين (وهم غير البلغاء) لخلوه من المحسنات التى كانوا يرون انها ضرورية لجمال شعر الاحتراف . وسنذكر في ما يلي بعض القصائد التي روى فيها عمر قصصه كاملة .

ولعل عمر وصف نفسه ابلغ وصف حين قال :

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه   لا حظ لى فيه إلا لذة النظر

وهو ما لا يدعيه احد من شعراء الاحتراف .

ومن امثلة قصصه الشعرية قصيدته التي يقول فيها :

تَصابى القلبُ وادّكرا   صباهُ ولم يكنْ ظَهَرًا

لزينبَ إذ تجدّ لنا   صفاءً لم يكن كَدِرا

أليستْ بالتى قالتْ لمولاة لهـا ظهرا
أشيرى بالسلام له إذا هُوَ نَحونَا خطرا
لقد أرسلتُ جاريتى وقلتُ لها خذى حذرا
وقُولى فى مُلاطفـة لزينبَ نوّلى عمرا
فهزّتْ رأسَها عَجبًا وقالتْ من بذا أمرا
أهذا سحرك النسوان قد خَبّرنّى الخبرا

هذه قصة نظمت شعرا من اول الامر ، وهو فن لا يحسنه الا عمر . والقصة خالية من كل اثر لشعر الاحتراف وليس فيها من عيوبه شيء ، واحرى بها أن تكون موضـع تقدير المتـادبين المحدثين .

وهناك قصيدة اخرى نورد منهـا ما يدل على اسـلوب عمر فى نظم قصصه شعرا . وهى قصيدة مشهورة خلاصتها أن صاحبته كان لها قريب يتنمر له كلما رآه حول بيتهـا ، فلما كان فى بعض امره ابصرته وأشارت اليه ، وقالت لأختهـا هل هذا هو المغيرى الذى لم انسه حتى الموت . فأجابتها اختها انه هو عمر وان كان قد تغير لونه من اثر السـهر والسير بالليل . فقالت ان كان قد تغير فذلك من اثر بعد كل منـا عن صاحبـه . فلما نظرت اليـه وجدت فيه رجلا لا يتجنب الشمس نهارا ولا البرد ليلا . فهو غير مدلل بل هو كثير السفر فى الصحراء وهذا ما جعله أشعث اغبر . ثم اخذ يصف عيشتها وانها تسكن منزلا فخما يحيط به بستان اخضر ، وانها فى كنف ولى امرها وانه يتيح لها كلّ ما ترغب فيه . ذكر بعد ذلك انه تجشم اليها سفرا طويلا فلما وصلَ الى منزلها اخذ يترقب حراسها الذين يطوفون بالمنزل حتى اطمأن الى نومهم

ثم ترك دابته فى العراء لا يسترها شيء وأخذ يبحث أين يكون خباؤها وكيف يستطيع أن يصدر من هذا الخباء اذا ورده ، ودله على الخبــاء ما يشــعر به المحب حين يقرب منزل حبيبته وعرفه من طيب رائحته . فلما اطفئت أنوار الخباء ، وكان القمر غائبا والسمار نوما ، عند ذلك مشى اليها مشية هادئة ساكنــة كمشية الحيات ونفض عن عينيه النعاس فحياها وردت السلام بصوت خافت ، وانبتــه على جراته ، وانه قد يفضـــحها بذلك ثم بث لها حبه ، وانه هو الذى دفعه الى هذه المخاطرة ، ولما هدا روعها دعت الله أن يرعاه وقالت له انه هو صاحب الأمر فى كل ما يتعلق بها ، وكانت تنظر اليه نظرة الوامقة . ولمــا كاد الليل ينقضى سمع المنادى يدعو الى الرحيل وطلبت اليه أن يجد مخرجا له من هذا الأمر ، وكان من رايه أن يبادر القوم ويهرب منهم أو يقوم بينهم قتال . ولم تقبلَ هى هذا الرأى لأنه يفضحهما . واشارت عليه ان ياخذ اختيها معه وهو خارج ، قالت ذلك وهى حزينة قد اصفر وجهها مما تعرضت له . وقامت الأختان ولبستا اثوابهما الحريرية ، وقالتا لأختهما ان الأمر أيسر مما تظن وانهما سيلبسانه ثيابهن ، ويخرج الثلاثة معا فلا يعرفه أحــد وهو فى زى النســاء ويقول فى ذلك انه اتقى اعداءه بثلاث فتيات كاعبات ومعصر ، ويريد بالمعصر نفسه فى زى النساء .

إذا زرتُ نعما لم يزلْ ذو قرابة
لها ، كُلّما لاقيتُه ، يتنمّرُ

أشارتْ بمدراها ، وقالتْ لأُختها
«أهذا المغيرى الذى كانَ يذكر؟»

أهذا الذى أطريت نعتاً ، ولم يكن
وعيشك ، أنساه إلى يوم أقبر »
فقالت : « نعم ، لا شك غيَّرَ لونه
سُرَى الليل يُحيي نصه والتهجر »
« لئن كانَ إياه ، لقد حَال بعدنا
عن العَهْدِ ، والإنسانُ قد يتغير »
رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ
فَيُضْحِي ، وأمّا بالعشى فيخصر
أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت
به فلواتٌ ، فهو أشعث أغبر
وأعجبَها من عيشها ظلُّ غرفة
وريانُ ملتفُّ الحدائق أخضر
ووالٍ كفاها كلَّ شيء يهمُّها
فليست لشيء آخرَ الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمنى السرى
وقد يجشم الهول المحب المغرر

فبت رقيباً للرفاق على شفًا
أحاذرُ منهم من يطوف ، وأنظر
إليهمْ متى يستمكنُ النومُ منهم
ولى مجلسٌ ، لولا اللبانةُ ، أوعر
وباتت قلُوصى بالعراء ورحْلها
لطارق ليلٍ ، أولمن جاء ، معور
وبتُّ أناجى النَّفس : «أين خباؤُها؟
وكيف لما آتى من الأمر مصدر ؟ »
فدلَّ عليها القلبُ رَيًّا عرفتُها
لها ، وهوى النفس الذى كاد يظهر
فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطفئت
مصابيح شبتْ فى العشاء وأنور
وغاب قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غيابَه
وروَّحَ رعيانٌ ، ونَوَّم سُمَّر
ونفضت عنى النومَ ، أقبلت مشية الـ
حباب ، وركنى ، خشية القومَ ، أزور

فحييتُ إذ فاجأتُها ، فتولّهتْ

وكادتْ بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان : « فضحتنى !

وأنت امرؤٌ ، ميسورُ أمرك أعسرا »

أريتك[1] ، إذ هنّا عليكَ ، ألم تخَفْ

وُقيت ، وحولى من عدوِّك حضَّر ؟

فو اللهِ ما أدرى أتعجيلُ حاجةٍ

سَرتْ بك ، أم قد نامَ من كنت تحذر ؟

فقلتُ لها : بل قادنى الشوق و الهوَى

إليك ، وما عينٌ من الناسِ تنظر

فقالتْ وقد لانتْ وأفرخَ روعُها

« كَلاك بحفظٍ ربك المتكبر ! »

« فأنت ، أبا الخطاب غيرَ مدافع

على أميرٌ ، ما مكثت ، مؤمّر

(1) أريتك ـ اخبرنى ، هنا : هان امرنا عليك .

فبتُّ قريرَ العينِ ، أُعطيتُ حاجتى
أُقبل فاها ، فى الخلاء ، فأُكثر

فيالك من ليل تقاصرَ طولُه
وما كانَ ليلى قبلَ ذلك يقصرُ

ويالك من ملهىً هناك ومجلسٍ
لنـــا ، لم يُكدِّره علينا مكدِّر

فلما تقضَّى الليلُ إلا أقلَّه
وكادتْ توالى نجمِــه تتغوَّر

أشارتْ «بأنَّ الحىَّ قد حانَ منهم
هبوبٌ ، ولكن موعدٌ لك عزورَ»

فما راعنى إلا منادٍ : «ترحلوا»
وقد لاحَ مفتوقٌ من الصُّبح أشقر

فلما رأتْ من قد تنبه منهم
وأيقاظَهُمْ ، قالتْ : «أشر كيف تأمر؟»

فقلت : «أباديهمْ فإما أفوتهم
وإما ينالُ السيفُ ثأرًا فيثأر»

فقالت : «أتحقيقاً لما قال كاشحٌ
علينا ، وتصديقاً لما كان يؤثر؟»

فإن كان مالابُدَّ منه ، فغيره
من الأمر ، أدنى للخفاء وأستر

«أقص على أختىَّ بدء حديثنا
وما لى من أن تعلما متأخر»

لعلهما أن تطلبا لك مخرجاً
وأن ترحبا صدرا بما كنت أحصر»

فقامتْ كئيباً ليس فى وجهها دمٌ
من الحُزن ، تذرى عبرةً تتحدر

فقامتْ إليها حُرتان عليهما
كساءان من خَزٍّ ، دمقس وأخضر

فقالت لأُختيها : «أعينا على فتى
أتى زائراً ، والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
«أقلِّ عليك اللوم ، فالخطبُ أيسر

فقالتْ لها الصغرى : «سأُعطيه مِطْرفي

ودرعي وهذا البُردُ إن كان يحذر»

يقومُ ، فيمشِي بيننـــا متنكّرًا

فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر

ولا يدعى احد أن هذه القصة الشعرية ــ ومثلها كثير فى ديوان عمر ــ بلغت الذروة فى فن القصص الشعرى . ولكنها على كل حال فتح جديد فى الشعر العربى . ويصح ان يبدأ بها وبمثلها المتذوقون للادب فى عصرنا الحاضر . فهى اقرب الى أذواقنـــا وافهامنا ، واجدر أن تقدرها من الشعر الفخم الذى يراد منا أن نعجب به وهو شعر الاحتراف ، فلا نجدفيه ما يروقنا ، بل لعلنا نجد فيه ما ينفرنا منه .

نماذج من شعر الطبع

ديوان الحماسة

تحدثنا عن امرىء القيس وعن عمر بن أبى ربيعة ، وبينـا أن بعض شعر المعلقة وأكثر شعر عمر يدلنا على شخصية متكاملة متميزة لكلا الشاعرين ، على أن نخلص أشعارهما من أكوام القش التى أحاطت بها من أثر البيئة التى عاشا فيها . وكل ما يعنى متذوقى الأدب المحدثين هو هذه الشخصية التى تكون للشاعر ، سواء أكانت هذه الصورة من نسج الخيال أم كانت وقعت فعلا . والذى يعنينا أن تكون الصورة جميلة صادقة لحياة رجلين لكل منهما شخصية واضحة وخصائص نفسية تفرق بينه وبين معاصريه . وقد بينا فى ما اخترناه من شعرهما خصائص شعر الطبع وما يختلف فيه عن شعر الاحتراف .

ونريد أن نبحث الآن فى نوع آخر من شعر الطبع تتمثل فيه حياة البداوة وخصائصها ومشاعر أهلها ، على أن تكون الصور صادقة خالصة من كل تشويه يحدث فيها ما داب عليه الناس فى ذلك العصر من العناية بشعر الاحتراف وحده . ولا نجد خيرا فى هذا الباب

من ان نعرض على المتادبين المحدثين ديوان الحماسة لابى تمام ، وفيه مجموعة من المقطوعات قراها الكثير منا فى شبابنا وحفظنا منهـا ما استطعنا ان نحفظه ، على انه من الشـعر الذى لا غنى عنه لمن يريد أن يلم ببعض الأدب العربى وعلق بأذهاننا ما قاله بعض النقاد القدماء من ان أبا تمام كان فى اختياره لهذه المقطوعات اشعر منه حين الف قصائده الطوال . ونحن نفهم هذا القول تماما ، لأن ابا تمام كان بطلا من أبطال شعر الاحتراف فى اسوا عهوده ، حين كانت العناية تتجه الى المحسنات التى فضـلها البلاغيون . أليس هو القائل عن السيف أن فى حده الحد بين الجد واللعب ، او ليس هو القائل عن السيوف بيض الصفائح لا سود الصحائف ، وهو قول لا يعجب به احد من المحدثين . فكيف استطاع ابو تمام صاحب مثل هذا الشعر أن يختار مقطوعات تختلف عن شعره تمام الاختلاف . أيكون هذا نوعا من الثورة على نفسه لخضوعه للذوق السائد فى عصره ؟ ولعل هذا يدلنا على انه لو ترك على سجيته لفضل شعر الطبع على شعر الاحتراف .

تبدأ مقطوعات ديوان الحماسة بقصة شاعر آغار على ابله قوم قرباء فاستباحوها . فلما استنصر قومه لم ينصروه على كثرة عددهم ، ونراه يعيرهم انهم ليسوا من الذين يردون الشر بالشر ، وختم مقطوعته ببيت مشـهور جرى مجرى الامثـال . واليك القصيدة :

لوكنتُ من مازنٍ لم تَستَبِحْ إبلى
بنو اللَّقيطةِ من ذُهلَ بن شيبانـا
إذًا لقامَ بنصرى معشرٌ خشنٌ
عند الحفيظةِ إن ذو لوثة لانا

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذَيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحـــدانا

لا يسألون أخاهُمْ حين يندبهم

فى النائبات على ما قال برهانا

لكنّ قومى وإن كانوا ذوى عــدد

لَيْسُوا من الشَّرِّ فى شَىء وإن هانا

يَجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً

ومن إساءةِ أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلقْ لخشيتهِ

سِواهُمُ من جميعِ الناس إنســانـــا

تلى ذلك مقطوعة تحكى قصـــة قبيلتين متجاورتين ، وكانت احداهما تسىء الى قبيلة الشـاعر فنراه يقول لهم انهم اخوان وانهم سيصفحون عن اساءتهم اذا كفوا عن العدوان ، فيعود بينهما الصفاء ولكن جيرانهم استمروا فى التحرش بهم ، واصبحت عداوتهم ظاهرة للعيان . والشـاعر يقول لهم ليس لنا الا أن نقاتلهم ونطعنكم طعنات تسـيل منها دماؤكم كما يسيل الماء من القربة المملوءة . وختم قوله بان الحلم عند الشر ذلة ، وان الشر قد ينجى الانسان حين لا ينجيه الصــفح :

صَفحنا عن بنى ذُهل. وقُلنا القَومُ إخوانُ
عسَى الأيامُ أن يرجعن قوماً كالذى كانوا
فلما صرَّح الشرُّ فأمْسَى وهْوَ عريان
مَشَينا مِشيةَ الليث غدا والليثُ غَضبان
بضرب فيه توهين وتَخضيعٌ واقـران
وطعنٍ كفم الزِّقّ غَدا والزقُّ ملآن
وبعضُ الحلم عند الجهل للذلَّةِ إذعـان
وفى الشر نجاةٌ حين لاينجيك إحسـان

وهناك مقطوعة اخرى يذكر فيها الشاعر ان قوما أغاروا عليهم وخيروهم بين القتال وبين ذلة الاسر واختار قوم الشاعر القتال فيموت من يموت ويحيا من يحيا عزيزا ، وفيها عبارتان مألوفتان عند ذكر القتال فى البادية : أن الفوارس يأبون الظلم ولا يخشون الموت ، ثم ان نصيب أعدائهم من الرماح صدورها ، ولهم مقابضها .

فقالوا لنا ثِنْتان لابدَّ منهما صدور رماحٍ أشرعت أوسلاسل
فقلنا لهم تلكم إذن بعد كرَّة تُغادر صَرْعَى نوؤها متخاذل
ولم نَدْر إن جِضْنا من الموت جيضةً كم العمر باق والمدى متطاول
لهم صدر سيفى يوم بطحاء سحبل ولى منه ما ضمت عليه الأنامل

هذه صور ثلاث للحياة في البـــادية ، اغارة على ابل تستباح ، وجيران يتقاتلون بعد ان يحاولوا الصفح والعفو ، وقوم يغيرون على غيرهم يهددونهم بالأسر او القتال .

وفي الحماسة مقطوعات كثيرة عن الفوارس وكانوا موضع احترام البدو . فمن وصفهم للفارس قول القائل :

فدتْ نفسي وما ملكت يميني — فوارسُ صدّقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايـــــــا — إذا دارتْ رحى الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيء — ولا يجزون من غِلَظ بلين
فنكّب عنهم دَرْءَ الأعادي — وداووا بالجنون من الجنون

وكانوا يستحبون من الفارس ان يكون سريعا كان به جنونا ، وأن يقبل على أعدائه فيسيل دمه على سرجه من ذلك قول القائل :

لايركنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ — يومَ الوغى متخوفاً لِحمَام
فلقد أراني للرماح دريئة — منْ عن يميني مرةً وأمامي
حتى خضبتُ بما تحدّر من دمي — أكناف سرجي ،أوعنان لجامي

ومن اجمل الصور للقتــــال بين فارســين جريئين ما جاء في المقطوعة الآتية :

وفارس في غمار الموت منغمسٍ — إذا تألّى على مكروهةٍ صدقا
غشيته وهو في جأواء باسلة — عضباً أصاب سواء الرأس فانفلقا
بضربة لم تكنْ مني مخالسةً — ولاتعجلتها جبنا ولا فرقا

هذه صورة صادقة لفارس منغمس فى غمار الموت ، يجول فى المعارك كما يشاء وحوله رجاله مدججين بالسلاح ، فلما التقى بالشاعر مواجهة ضربه هذا فوق رأسه بالسيف فانفلق ، ثم يزيد على ذلك أن هذه الضربة لم يقدم عليها خلسة ولم يتعجلها خائفا وانما ضربه بها مطمئنا ثابتا . والمقارنة بين فارس سريع جرىء وبين فارس ثابت مقارنة جميلة وأحسبها صادقة .

على أن الفرسان فى الحماسة لم يكونوا جميعا من هذا الطراز ، من ذلك قول القائل :

اللهُ يعلمُ ما تركت قتالَهُمْ حتى عَلَوا فرسى بأَشْقرَ مزبد

وشَممتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم فى مأزق والخيلُ لم تتبدد

وعلمت أنى إن أُقاتلْ واحدًا أُقتلْ ولا يضرر عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأَحبةُ فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

يعترف هذا الشاعر بخوفه من القتل ويبرر هروبه من القتال مع وجود أحبته عند الأعداء لأنه يرجو أن يثأر لهم فى يوم من الأيام .

وشاعر آخر موقفه شر من هذا . جمع بين كتيبتين وجعلهم يشتبكون ، حتى اذا اشتد القتال تركهم لينجو بنفسه وهو يقول فى ذلك أنه لن ينفعه أن يقول النساء فيه خيرا بعد أن يقتل دون رجالهن :

وكتيبة لبّستها بكتيبة حتى إذا التبستْ نفضتُ لها يدى

ما كان ينفعُنى مقال نسائهمْ وقتلتُ دون رجالهمْ لا تبْعد

من صدق شعراء الطبع أن يعترفوا بجبنهم . كان حسان بن ثابت معروفا بذلك حتى هزأ به النساء حين أردن منه أن يسلب قتيلا وكن على ذلك قادرات لولا ما فى هذا من عيب .

ومثل ذلك قول الشاعر :

ولقد أجمع رجلى بها حَذَر الموت وإنى لفرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير

ونعود الى شجاعة الشجعان ولانجد أبلغ فى ذلك من القول المشهور لقطرى بن الفجاءة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شَعَاعًا من الأبطالِ ويحكِ لا تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرًا فما نَيْلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍّ فيطوى عن أخى الخَنَع اليراع
سبيلُ الموت غايةُ كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لايعتبطْ يسأمْ ويهرم وتسلمه المنونُ إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ فى حياة إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع

وليس هذا تفاخرا اجوف ، ولا شجاعة زائفة ، وانما هو قول رجل مقدم على الموت يحاول صادقا ان يقنع نفسه ان الموت خير من عيش الذلة ما دام الأجل محدودا .

وهذا عند من يعجبهم شعر الطبع خير الف مرة من قول شاعر الاختراف وان يكن (بشار بن برد) حيث يقول :

إذا ما غضبنا غضبة مضريّةً

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَما

وهناك مقطوعة اخرى يروى فيها الشاعر قصة قوم اغاروا على داره فهدموها غدرا وعدوانا ، ولكنهم نسوا انها تراث رجل كريم لا يخشى العواقب ، وانه اذا عزم امرا فلا يقعده عن ذلك ما يجره عليه من عواقب . وفيه وصف لما يحدثه الغدر والعدوان فى نفس رجل كريم يأبى أن يخضع لاعتداء المعتدين ويقول فى ذلك :

سأغسل عنى العارَ بالسيفِ جالبًا
على قضاءُ اللهِ ماكان جالبـــا
فإن تَهدِمُوا بالغَدرِ دارى فإنها
تراثُ كريمٍ لا يخافُ العواقبا
إذا هَمَّ لم تردعْ عزيمة همه
ولم يأْت ما يأْتى من الأمر هائبا
إذا همّ ألقى بين عينيهِ عَزْمَه
ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يَسْتشِرْ فى رأيِه غير نفْسِه
ولم يرضَ إلا قائم السيفِ صاحبا

ليس هذا فخرا اجوف كالذى نراه فى شعر الاحتراف كقول بشار

إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلة ذُرى مِنْبر صلّى علينا وسلّما

وقليلا ما نجد فى شعر الحماسة مدحا للجواد على جوده ، لأن ذلك لا يتفق مع شعر الطبع ، ومنه قول القائل :

وإنى لمهد من ثنائى فقاصدٌ   به لابن عمٍّ الصدق سمس بن مالك

أهزّ به فى ندْوة الحى عطفَه

كما هزَّ عطفى بالهجَان الأوارك

ثم يصفه بعد ذلك بالشجاعة والمخاطرة فيصبح فى مفازة صعبة ويمسى فى غيرها ، ويقول فى ذلك :

قَليلُ التشكّى للمهمِّ يُصيبه   كثيرُ الهوى شتَّى النوى والمسالك

يَظلُّ بموْماة ويُمسى بغيرِهَا   جحيشاً ويَعْرَورِى ظهورَ المهالكِ

ومن عجيب ما جاء فى الحماسة مقطوعة يقول فيها الشاعر ان زوجته تلومه على اعطاء حصانه (وكان اسمه الورد) لبن ناقتهم ، ويقول فى ذلك انه عند الكرب وعند الفزع لا تستوى امرأته وحصانه فزوجته تأتيه فزعة شعرها اشعث ، حاسرة عن قناعها ، أما حصانه فيذهب به الى حيث يكون القتال وهناك يجزيه بما قدم له من طعام :

أَرى أُمَّ سهل ماتزال تفجع   تلومُ وما أدرى علامَ تَوجع

تلوم على أَمنَح الورد لقحة   وما تستوى والورد ساعةَ تَفزَعُ

إذا هى قامت حاسرًا مشمعلةً   نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع

وقمت إليه باللجام ميسرًا   هنالك يجزينى بما كنتُ أصنع

ومن عادة كرام العرب التى تظهر فى شعرهم تفضيلهم الاخذ بالثأر على قبول الدية :

فلو أن حيًا يقبل المال فديـــة

لسقنا لهم سيلا من المالِ مُفعما

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم

رِضَا العار فاختاروا على اللّبن الدّما

ويفخر العرب ان دماءهم فى القتال تسيل على الاقدام ولا تسيل على اعقابهم . يريدون بذلك انهم يتقدمون الى الامام دائما ، ولا يفرون وفى ذلك يقول القائل :

تـأخرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجد

لنفسى حياة مثلَ أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومُنا

ولكن على أقدامِنا تقطرُ الدِّمـــا

نفلق هاما من رجَال أعزة

علينا وَهُمْ كانوا أعقَّ وأظلمــــا

هذه صور مختلفة للحياة بين البدو ووصف جميل لفضائلهم البدائيه . وفيها كل صفات شعر الطبع . ومن خير ما فعله ابو تمام انه تجنب القصائد الطوال ولم يرغمنا على احتمال ما لا يحتمل من ذكر الأطلال والتشبيب بالنساء ووصف اعجازهن وضمور كشحهن .

يقول احد شعراء الحماسة انه سجن فى مكة ولكن قلبـــه ظل يسير مع الركب اليمانى الذى فيه حبيبته . ولما زارته بالليل اكه لها

انه لا يخاف الموت وان به فى السجن من الصبابة ما كان به حين كان طليقا :

هَواى مع الركب اليمانين مُصعدٌ
جنيبٌ وجثمانى بمكة موثق
عجبت لمرآها وأنى تخلصتْ
إلى وبابُ السجن دونى مغلق
ألمّت فحيَّت ثم قامت فودّعت
فلما تولَّت كادت النفسُ تَزهق
فلا تحسبى أنى تَخَشَّعتُ بعدكم
بشىء ، ولا أنى من الموت أفرق
ولا أنَّ نفسى يزدهيها وعيدهم
ولا أنَّنى بالمشى فى القيد أخرق
ولكن عرتنى من هواك صبابةٌ
كما كنْت ألقى منك إذ أنا مطلق

أليس هذا خيرا من قول جرير :

إن العُيون التى فى طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانـــا

ومن المألوف ان يقول الشاعر انه يذكر حبيبته والسيوف تعتوره :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا
وقد نهلتْ منا المثقفةُ السُّمرُ
فوالله ما أدرى وإنى لصادقٌ
أداءٌ عرانى من حبابك أم سِحْر
فإن كان سِحْرًا فاعذريني على الهوى
وإن كان داءٌ غيره فَلك العذر

وفى الحماسة ذكر لبعض المعتقدات البدائية . فكان منهم من يقول ان ابنه يكون شجاعا نجيبا اذا حملت به أمه غصبا وهى كارهة .
ومن غريب القول أن أحد الأبطال دعا على نفسه أن يكون بخيلا وأن ينحرف عن العلا وان يلقى أضيافه عوسا اذا لم يقاتل ابن حرب . وهذا قول عجيب يدل على أنه كان يرى القتال احب اليه من ان يلحقه عار البخل او سبته مقابلة الضيوف وهو عابث .

بقيت وفرى وانحرفت عن العُلا
ولقيت أضيافى بوجهٍ عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارةً
لم تخلُ يوماً من نِهاب نفوس

ومن المواقف التى يحار فيها صاحب الثأر ما جاء فى قول الشاعر :

قَومى هُمو قَتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوتُ لأعفونْ جللاً ... ولئن سطوتُ لأوهنن عظمى

ولم يكن كل شعر البادية فخرا وقتالا بل كان فى بعضه ما يدل على التواضع ، وان كان اصله الكبرياء حيث يقول الشاعر :

ولم أر قوماً مثلنا خير قومهم ... أقلّ به منا على قومهم فخرا

وما تنزوهينا الكبرياءُ عليهم ... إذا كلّمونا أن نُكلمهم نزرا

ونحن بنو ماء السماء فلانرى ... لأنفسنا من دون مملكة قصرا

ومن الاباء ما ذكره الشاعر حيث يقول :

لا أشتهى يا قومُ إلا كارهًا ... باب الأمير ولا دفاع الحاجب

ويقول الآخر :

ذهبتُم ولذتم بالأميرْ وقلتُم ... تركنا أحاديثاً ولحمانا موضّعا

فما زادنى إلا سناءً ورفعةً ... وما زادكم فى الناس إلا تخصعا

ولا اريد ان اترك ديوان الحماسة دون ان اشير الى قصيدتين شهيرتين وردتا فيه ، الاولى قول المنخل اليشكرى ، والثانية منسوبة الى تأبط شرا .

يقول المنخل :

ولقدْ دخلتُ على الفتاة الخد ... ر فى اليوم المطير

الكاعب الحسناء تر ... فلُ فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتها فتدافعت ... مشى القطاة إلى الغدير

فإذا صحوتُ فإننى ... رب الشويهة والبعير

وإذا انتشيت فإننى ... رب الخورنق والسدير

والقصيدة مشهورة جميلة يرجع جمالهـــا الى أن موسيقاها سريعة خفيفة مرحة ، توافق روح الشـــاعر الماجن المستهتر الذى يســـتوى عنه أن يكون رب الشـــويهة والبعير ، أو رب الخورنق والسـدير ، وهما من كبار القصور الفاخرة ، ولا أشك أنه شاهدهما وانه قال هذه القصيدة وهو رب الخورنق والسـدير ، ولو أراد أحد الممثلين البارعين أن يلقى هذه القصيدة لكان اداؤها كما يؤديهـــا من أسرف فى الشراب . وانتهى به المجون الى القول صراحة أنه يحبها وتحبه ويحب ناقتها بعيره ، وفيه تحديد للمعنى المراد بلغ به غاية الاستهتـــار .

وأحبها وتحبـــــنى ويحب ناقتهابعيرى

أما القصيدة الثانية فهى منسوبة الى تأبط شرا ، ولها حكاية طويلة ترجع الى أن (جوته) ترجمها الى الالمانية وعلق عليها بعد أن غير ترتيب بعض أبياتها .

وقد دار جدل كثير حول ترجمة (جوته) لهذه القصيدة ، وقد اسرف العلماء المحدثون فى تقديرهم لهذه الترجمة . وما زلت أعتقد أن هــذه القصـــــيدة من أجمل ما عرفه الأدب العربى ، وذلك من جهتين : الجهة الانســـانية . فهى من أصدق شـــعر الطبع ومن خير الأمثلة عليه . أما الناحية الفنيـــــة فقد لا يقدرها الا العربى الذى يتذوق جمال موسيقاها وحسن اخيلتها .

ولا يعجبنى كثيرا اسراف بعض الأدباء المحدثين فى تقدير اختيار شاعر مثل (جوته) لهذه القصيدة ، حتى حسبوا ان هذا الاختيار مفخرة للأدب العربى . والواقع أن جوته كان رجلا طلعـــة يريد أن يعرف كل شىء يعرض له . وله دراســـة لا بأس بها فى التشريح وصف فيها عظمـــة صــــغيرة فى الجمجمة فوق الثنايا . وله محاولة فى تصنيف النباتات . وحين قامت ثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا ســـأل

(جوته) صديقة (اكرمان) عن أهم الأخبار الواردة من فرنسا . وظن (اكرمان) أنه يسأل عن أخبار الثورة . ولكن (جوته) قال له أنه انما يسأل عما دار فى المجمع العلمى الفرنسى بين عالمين من علماء البيولوجيا (كوفييه وسانت هيلير) من مناقشة بيولوجية بحتة . ولا يدل ذلك الا على رغبة الغربيين فى الاستطلاع وفى معرفة جميع الثقافات فى شتى بلاد العالم . ولا شك أن (جوته) استوحى من الشرق ومن الأدب العربى بعض الصور والأخيلة التى أوردها فى شعره . كما استوحى مثل هذه الصور من ثقافات أخرى عديدة . وقد يكون من الصعب أن تعرف الأسباب النفسية التى جعلت (جوته) يتأثر هذا التأثر الواضح بالآداب الشرقية . فقد لا يستطيع ذلك الا عالم ألمانى متخصص فى (جوته) .

ولا نزاع أن (جوته) تأثر بالناحية الانسانية وحدها ، والواقع أن كبار الشعراء العرب لا يمكن لنا أن نجعل شعرهم عالميا ، يعجب غير العرب ، لأن أكثره شعر احتراف . يتعلق جماله بألفاظه وصياغته .

والقصيدة تحتاج الى شرح وسابدأ بشرح أبياتها واحدا واحدا .

١ ــ فى مكان ما يوجد قتيل دمه لن يضيع هدرا .

٢ ــ أن هذا القتيل خلف عبء الثأر على الشاعر وهو قادر على تحمل هذا العبء .

٣ ــ والقتيل خال الشاعر الذى يرى نفسه قوى الشكيمة صعب المراس .

٤ ــ وأنه يطرق كما تطرق الحية وهى تنفث السم وسمها من أخبث الأفاعى .

٥ ـ ويتحدث عن هذا الخبر انه جاءه وكان شديد الوقع عليه وهو حىر عظيم يصغر ازاءه أجل الأخبار .

٦ ـ سلبنى الدهر رجلا أبيا لا يذل جاره .

٧ ـ وان هذا القتيل كان كالشمس فى دفء المقرور ، اما حين يشتد الحر فهو برد وظل على من يلوذ به .

٨ ـ وكان القتيل هزيل الجسم فى غير بؤس ، جوادا شهما .

٩ ـ وهو اذا سافر أظهر الحزم ، واذا حل فى مكان فالحزم يلازمه .

١٠ ـ فاذا جاد على الناس كان كغيث السحاب ، اما اذا حارب فانه يصير كالليث الهصور .

واليك القصيدة :

١ - إن بالشعب الذى دون سلع
لقتيلا دمه ما يطل

٢ - خلَّف العبءَ علَىَّ وولَّى
أنا بالعبء له مستقل

٣ - ووراء الثأرِ منى ابن أُخت
مصع عقدته ما تحل

٤ - مطرق يرشح سمّاً كما أطرق أفعى ينفث السم صلّ

٥ - خبر ما نابنا مصمئل
جلّ حتى دقّ فيه الأجل

٦ - بزّنى الدهر وكان غشوماً
بأبىّ جاره ما يـــذل

٧ - شامسٌ فى القر حتى إذا ما
ذكت الشعرى فبرد وظل

٨ - يابس الجنبين من غير بؤس
وندىّ الكفين شهم مدل

٩ - ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما
حل حل الحزم حيث يحل

١٠- غيثُ مزن غامر حيث يجدى
وإذا يسطو فليث أبـــل

ولا نزاع أن هذه القصيدة من وجهة نظر العواطف الانسانية جميلة صادقة ، وصف فيها الشـــاعر خاله القتيل بكل الفضائل البدوية الشهيرة . كان يحمى الجار ويغيث من يلوذ به فى الحـــر والبرد وعند الحاجة . ولكنه كان كذلك ليثا أغلب عندما يسطو على أعدائه . ووصف الشاعر نفسه بأنه لن يهدر دم خاله ، وانه على ذلك قادر ، فهو كالحية تنفث سمها فلا ينجو منها عدو .

وليس من الصعب أن نجعل هذه العواطف شعرا انسانيا عالميا وهو مالا نستطيع أن نعمله حتى بأرقى شعر الاحتراف من مثل قول المتنبى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جَفْنِ الردى وهو نائم

ولكن هناك الناحية الفنية التى يدركها العربى الذى يتذوق موسيقى هذا الشعر ، فالحركة فيها حركة خاصة جدا ، أكثرها سريع وبعضها بطىء كأنها حركة الخيل فى الكر والفر فى حومة الوغى عند التقاء الفرسان ، وفيها تعبير موسيقى عن نفس الشاعر الجياشة بالثأر والمتعطشة اليه . وسنعود الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن الموسيقى فى الشعر العربى .

* * *

من الواضح أن فى الأدب العربى كثيرا من شعر الطبع، وسنعطى منه امثلة قليلة لأن استقصاء هذا الباب يطول بنا جدا .

من ذلك قول الشاعر :

أفاطم قد زُوجت عيسى فأيقنى

بذلٍّ لديه عاجلٍ غير آجل

فإنك قد زوجت عن غير خبرةٍ

فتى من بنى العباس ليس بعاقل

فإن قلت من رهط النبى فإنه

وإن كان حر الأَصل عبد الشمائل

هذا كلام بسيط ليس فيه تكلف ولا محسنات ، ولكن فيه حرارة العطف على فاطمة والحرص على مستقبلها . وهو يحذرها ممن ستتزوجه لأنه وان كان من بنى العباس الا أن شمائله شمائل العبيد .

ومن شعر الطبع ايضا قول القائل :

تضوّع مسكاً بطن نعمان أن مشتْ
به زينبٌ فى نسوةٍ خفرات
فلما رأتْ ركب النميرىّ أعرضت
وكن من ان يلقينه حذرات
يخبّئن أطرافَ البنان من التقى
ويخرُجْنَ نصف الليل مختمرات

قصة صغيرة صادقة ، ولا أشك انها وقعت له فعلا .

وليس من عادة شعر المديح أن يكون فيه امثلة من شعر الطبع الا اني أرى كثيرا من الصدق فى قول القائل :

رأيت عرابة الأوسىّ يسمو إلى العلياء منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجد تلقّاها عرابةُ باليمين

ثم يخاطب ناقته فيقول :

إذا بلّغتنى وحملتُ رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقد أجمع النقـــاد على استهجان البيت الأخير ، فكيف أباح لنفسه أن يذبح ناقة بلغت به أقصى أمانيـــه . ولكنى أرى فى هــذا البيت صدق عاطفته واضحــا ، فهو يريد أن يقول أنه لن يكون فى حاجة الى ناقة يسافر عليها لأنه سيظل عنـــد عرابة طول حيـــاته لا يبغى عنه بديلا .

ومن شعر الطبع قول القائل :

ولقد لزمتُ الحىّ أتبع ظلهم ... حتى دفعتُ إلى ربيبة هودج

قالت بحق أبي وأكبر إخوتى ... لأنبهنْ الحى إن لم تخرج

فخرجتُ خيفة قولها فتبسمت ... فعلمتُ أن يمينها لم تحرج

فلثمت فاها آخذًا بفؤادها ... فعْلَ النزيف ببرد ماء الحشرج

أين من هذا تشبيب شعراء الاحتراف بالنساء .

يتبين لنا من هذه الأمثلة أن شـــعر الطبع فى الأدب العربى له صفات خاصة . فهو فى الأغلب مقطوعات قصيرة ، لأن القصائد الطوال تجر الشاعر الى شكل القصيدة ، وهذا أبعـــد ما يكون عن الطبع . ومن خصائص شعر الطبع أنه خال تماما من ألوان البلاغة المفتعـلة التى حرص عليها شعراء الاحتراف . ومن شعراء الاحتراف من فى بعض أقواله شـــعر جميل كشعر الطبـــع كما فى قصيدة المتنبى الجميلة :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعَنَاهُمْ من شأنه ما عَنَانا

ولا أريد أن أتحدث هنا عن شعر شوقى والأدوار التى مر بهـا فى حياته الشعرية . ولكنى اذكر ان من خير شعر الطبع قوله :

خدعوها بقولهم حسناءُ   والغوانى يغرهن الثّناءُ

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ   فكلامٌ فموعد فلقاءُ

هذا وصف جميل لما يكون قد حدث له فى حديقة (لوكسمبرج) فى باريس عندما كان طالبا . ثم مر شـعر شوقى بعد ذلك بتطور واضح أصله ما أراد من اتمام النقص الذى رآه فى الشـعر العربى القديم . فكتب تاريخ مصر شعرا ، ثم ألف التمثيليات الشـعرية المعروفة ، وأصاب قدرا غير قليل من النجـاح فى هذه المحاولات . واعرف كثيرا من الأدباء يعجبهم قول شوقى :

رِيمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلَمِ   أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

مع أن هذا من صميم شعر الاحتراف . الشطر الأول فيه أربع كلمات ترد كثيرا فى الشعر العربى ، ولها رنين جميل . ولكن شوقى وضعها جنبا الى جنب دون أن يقدر أن هذا الشطر لا يعطينا صورة واضحة عن الريم أو القاع أو البان أو العلم ، وهذه من اظهر صفات شـعر الاحـتراف .

* * *

لا أحسب أن هناك أدبا من الآداب القديمة عند الأمم المختلفـة يخلو من الاشادة والتغنى بالبطولات الفردية وهى بطولة القتـال والقتل . فعل ذلك شعراء اليونان فى وصفهم القتال الذى دار حول

أسوار (طروادة) . وللعرب كذلك شعر كثير فى مدح هذا الصنف من البطولة . ولكنه ظل مقطوعات صغيرة كالتى رأيناها فى ديوان الحماسة . اما القصص الطويلة فقد بقيت شعبية عامية ولم يشأ الأدب العربى الرفيع أن يتناول هذا القصص . فلما افتقدناه فى الأدب العالى ، وهو مما يؤسف له ، اضطررنا الى اغفال أكثره ، وكان ذلك من اثر طغيان اللغة وغريبها وشدة العناية بما وضعه البلاغيون من قواعد ، فكان أن ساد شعر الاحتراف وأصبح هو وحده الشعر المقبول عند الخاصة ، وصار كل ما عداه قولا تافها لا يعنى به الا عامة الناس .

شعر الاحتراف

غلب شعر الاحتراف على الشعر العربى حتى كاد يستغرقه كله ، وغلب أدب الاحتراف على الادب العربى حتى شمله كله تقريبا . طغت اللغة على الشعر والأدب حتى أصبح العلم بها غاية ترجى لذاتها ، ولا يروق هذا للمتأدبين المحدثين ، ولا يروى عطشهم الى السمو باحساسهم ، ولا يشبع رغبتهم فى الخيال الجميل ، ولا يصف لهم متعة الحياة ولا يحل المشاكل النفسية والخلقية التى تعترض حياتهم . ونحن نرى أكثرهم انصرفوا الى الآداب الأجنبية يجدون فيها ما يفتقدونه فى أدبهم القومى . والانسان لا يفهم الشعر الأجنبى الا فهما عقليا او نفسيا ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف بالضبط مقاييس الجمال الحسى الذى يعرفه اهل ذلك الشعر . والجهل بالشعر القومى ينقص من قدر ثقافة المتعلمين ، ويذهب بكثير من روائها . هذا عيب كبير قد لا يدركه جمهور المتعلمين ، ولكن الجهل بالشعر القومى يؤثر تأثيرا سيئا فى التكوين الكامل لشخصية الذين يحرصون على أن تكون لهم ثقافة عالية . ومن الخطر على الأمة ان يجهل المثقفون فيها شعر امتهم ، بل شر من ذلك الا يعبأوا به ، وأن يسخروا منه . وهذا ما نعلمه عن كثير منهم . وليس لنا

ان نسكت على هذه الحال ، لأن ثقافتنا حينذاك تكون مبنية علـى الرمل ، أو مستعارة لا جذور لها فى نفوسنا .

فهل من سبيل الى عرض شعر الاحتراف على المثقفين المحدثين عرضا يقربه الى حد ما من أذواقهم ؟

اذا اردنا أن نجد هذه السبيل فعلينا ان ندرس وظيفة الشعر فى المجتمع العربى ، وكيف كانوا لا يعدون من الفحول الا شعراء الاحتراف ، وكيف أصبح شعراء الطبع فى المحل الثانى ، لا يعبأ بهم احد . وظلت القصيدة فى شعر الاحتراف على شكلها قرونا عديدة ، بالرغم مما ادى اليه ذلك من ابتذال . ثم كيف كانت موضوعاته ضيقة محدودة . وكيف اجمع الناس والنقـاد على الاعجاب بشعر الاحتراف ، وكيف كانوا يفاضلون بين الشعراء ، وكيف كانت معايير الجمال عندهم . ثم ندرس بعـد ذلك العقبات التى يتعثر فيها المتذوقون المحدثون حين يريدون ان يلموا به ، ثم ندرس بعد ذلك اثر علوم البلاغة والمحسـنات اللفظية فيه ، وليس من الاسراف أن نقول ان علوم البلاغة كانت نكبة على الشعر العربى بل على الأدب العربى كله تزيد فداحة عن نكبة اللغة فى الفية ابن مالك .

ليس عجيبا أن يعنى العرب بلغتهم تلك العناية الفائقة ، اذ هى فنهم الوحيد . والعرب تعجبهم الكلمة الذكية والجواب المفحم والعبارات المنمقة ويعدون من البلاغة أن تقول فى ثلاث عبارات ما يمكن أن يقال فى عبارة واحدة ، واعجابهم بالحكم والمواعظ من اثر هذا الاعجاب بالعبارات الذكية . وكتب الأدب الشهيرة كالعقد الفريد ونهاية الأرب مملوءة بالكثير من هذه الحكم ، والحكم من أبسط انواع الادب . ثم جاء الشراح فزادوا الطين بلة حيث ارادوا أن يشرحوا مفردات اللغة وعنوا بغريبها ، ظنا منهم أن هذا غاية العلم وفى تآليفهم عيب لا يقبله الذوق الحديث ، فهم يتناولون مسائل

النحو والصرف والاعراب ، معرضين عما يكون فى الشعر من خيال جيد ، ثم يستطردون من ذلك الى ذكر النكت البلاغية والمحسنات التى لا بد من العلم بها اذا أراد الشاعر أو الكاتب أن يكون موضع الاعجاب . والقارىء المحدث لا يطيق مثل هذا التأليف ولا يستسيغ الاستطراد من علم الى علم ، ولهذا كان كتاب جيد كالكامل والمبرد صعبا لا يستطيع الصبر عليه الا المتحصصون .

واذا أردنا أن نفهم شعر الاحتراف على نحو ما فيجب ان نقدر وظيفة الشعر فى المجتمع العربى ، ولنبحث فى حقيقة ما كان يحدث فى سوق عكاظ قبل الاسلام ، وما كان يحدث فى المربد بالبصرة فى عصر الاسلام . كانت عكاظ سوقا تجارية ، وكانت الندوات الأدبية فيها مجالا للسمر والشراب والفخر والمديح . ومثل هذه الندوات معروفة حتى فى العصور الحديثة ، شهدنا مثلها فى لبنان ، سوى ان الزجل فى العصور الحديثة حل محل الشعر الفصيح فى الاسواق القديمة . كان الشاعر يفخر بقبيلته فيطرب قومه لهـذا الفخر ويرتفع بذلك قدره عندهم . وكانوا يمدحون فيطرب الممدوح ، وهم فى ذلك لا يخرجون على أمرين الكرم والشجاعة وهما من الفضائل البدائية . وكانوا يعكفون أحيانا على الهجاء فيثيرون فى الحاضرين الضحك لمثل هذا الهزل . والناس لا ينظرون فى كل ذلك الا الى صنعة الشعر ، وكان كل ما يرجى من الشاعر أن يكون صائغا ماهرا ، يتناول القطعة المبهمة من الذهب او الفضة فيجعل منها حلية جميلة يزين بها الممدوح صدره ، ولعل جودة الشعر لم تكن لتعنى الممدوحين ، الا من حيث هى وسيلة لذيوع فضائلهم ، وكان غرضهم أن يكون شعر المديح فيهم مما يسير فى الآفاق ويتحدث به الركبان . ولعل اكثر اعجابهم كان بهذه الصفة التى تكون فى الشعر المشهور . وبعضهم لم يكونوا يعباون بجمال الشعر من حيث هو فن جميل . وليس لنا الا أن نعجب بشعراء الاحتراف الذين استطاعوا ان يؤلفوا دواوين ضخمة تدور كلها

حول صفتين اثنتين الكرم والشجاعة ، وكانوا يعدون هذا افتنانا في لقول ، ولا أظن احدا يعجب بمثل هذه الصنعة في أيامنا هذه لان هذه الموضوعات بطبيعتها ضيقة محدودة ، ومهما تختلف صور التعبير عنها فهي تؤدي حتما الى شعر مبتذل مسئوم . ولم يكن في السامعين او الممدوحين أو النقاد من يعنيه أن يشرح الشاعر عواطفه أو أن يحلل أزماته النفسية ، ولو فعل احدهم ذلك لزهد الناس في شعره وأعرضوا عنه . ولم يخطر ببال احد أن يكون الشعر « عواطف متأججة يذكرها الشاعر بعد هدوء نفسه » وهو وصف الشاعر الانجليزي (وردزورث) لطبيعة الشعر . اذا قدرنا ذلك فقد نستطيع أن نقبل من شعر الاحتراف ما لا نقبله اذا حسبناه تعبيرا صادقا جميلا عن شعور حقيقي . وقد قال بعض النقاد القدماء ان المعاني معروفة مشهورة ، وان التفاضل بين الشعراء لايكون الا في الصياغة . هذا الوصف لا يصلح الا على شعر الاحتراف حيث المعاني مطروقة والصياغة هي كل شيء، ولا يصدق على شعر الطبع .

هذا من ناحية الموضوعات ، أما من ناحية الشكل فقد حافظت القصيدة العربية على شكلها قرونا طويلة ، تبدا بالمألوف من القول كالبكاء على الأطلال أو التشبيب بالنساء أو ذكر الشباب والشيب. وسموا ذلك التمسك بعمود الشعر ، أما ما عدا ذلك فلم يكن خليقا أن يعد شعرا . وقد بينا أن ذلك كله لا يتفق وشعر الطبع . بل هو من شعر الاحتراف . ولم يكن لذكر الأطلال معنى بعد أن ذاع الشعر بين أهل الحضر . وأما التشبيب بالنساء فلم يكن من الحب في شيء ، بل كان مقصورا على وصفهم اعجاز النساء وضمور كشحهن ، وكان كل شاعر يحاول أن يبذ أقرانه بالمبالغة في هذه الأوصاف السخيفة . قالوا ان المتجردة كانت تستر وجهها بذراعها لعبالتها . وكانت عائشة بنت طلحة مثل ذلك ، وقال الأخطل يصف حبيبته أنها كانت اذا نزلت من غرفة عالية يرتجف البيت كله لولا

انه مبني بالطوب والآجر (١) . ولعل اسخف بيت في شعر الاحتراف ما قاله احدهم في وصف امراة ان عجزها كان ضخما يمنع قميصها ان يمس ظهرها ، وأن ثديها كان عظيما الى حد يمنع القميص ان يمس صدرها .

أبت الروادفُ والثدى لقمصها مَسَّ الظهور وأن تَمَسَّ بطونا

ويأتى بعد ذلك ما كانوا يسمونه حسن التخلص ثم ينـدفع الشاعر فى ما يريد أن يقوله .

هذا التمسك بشكل القصيدة اثر من آثار العرف عند اهل البادية ، والعرف له عليهم سلطان يفوق سلطان القانون المدون عند أهل الحضر ، وكان الخروج على العرف يجعل حياة الانسان مستحيلة فى قبيلته ، فسرى ذلك على الحياة الفكرية فى كثير من مظاهرها . والعجيب ان هذا العرف استمر عند أهل الحضر . ولعل السبب فى ذلك أن الشاعر كان يبدأ بقول مالوف لا يحتاج الى امعان فكر ، حتى يستقيم له الوزن والقافية فيندفع فى ما يريد أن يقول . مثله فى ذلك مثل المغنى حين يردد (يا ليل يا عين) الى أن يستقيم له النغم .

ومن السهل أن نهمل هذا الشكل حين نعرض شعر الاحتراف على الأدباء المحدثين . وشعر الاحتراف تكثر فيه الاستعارات والتشبيهات البعيدة ، مع أنها اصبحت من السهولة بحيث يستطيع تدبيجها المبتدئون فى قول الشعر . على انه من حسن حظ المتادبين المحدثين انهم لا يعرفون من علوم البلاغة الشىء الكثير ولو عرفوا

---

(١) كان استاذنا لطفى السيد يقول أن الشعراء ارادوا ان يؤكدوا ان حبيبتهم من اهل النعمة وانها ليست من اهل البادية . ويذكرنى هذا بما حدث (لبنجامين فرانكلين) حين عين سفيرا فى باريس ، فتهامس النساء المحترفات من اهل باريس انه فعلا عمل اعمالا يدوية وكان هذا عندهم يكاد يكون سبة .

ابوابها لزادوا من الشعر العربى نفورا . كان البلاغيون يستحسنون الجناس ، وهو أن تتشابه الكلمتان لفظا وتختلفان معنى ، وقسموا الجناس الى تام ومذيل ومطرف . ولعلهم لم يعجبوا بجماله انما اعجبوا بمهارة قائله وهى الصفة الأولى لشعر الاحتراف . والجناس معروف فى لغات كثيرة ، واكثره يثير الضحك أو الاستهزاء . واذكر ان الدكتور جونسون سمع رجلا يكثر من الجناس فقال عنه هذا رجل لا يطمئن الانسان ان يلقاه فى مكان مظلم . كأنه يقول ان القول بالجناس خداع ، يأخذ الناس على غرة منهم بمعان غير متوقعة .

ثم أصاب الشعر العربى والنثر العربى ايضا نكبة علوم البلاغة وتقعيد اساليب الجمال والعمل على تطبيقها . فلا يجد الشاعر بعد ذلك متسعا للتفكير السليم أو البلاغة الحقيقية ، وفى عملهم هذا خلط عجيب فى المنطق ، وكأنهم كانوا يرون البيت الحسن فيظنون أن حسنه يرجع الى ما فيه من صفة خاصة يضعون لها مصطلحا بلاغيا ثم ينتقلون من ذلك الى أن هذه الصفة تجعل البيت حسنا بليغا مهما يكن أمره ضئيلا .

ولو اقتصر أمر البلاغيين على مصطلحات قليلة لهان الخطب . ولكنهم أكثروا من هذه القواعد الى حد جعلها غير مقبولة عقلا ولا ذوقا . وسنعرض على المحدثين من باب الفكاهة بعض المصطلحات التى وضعها البلاغيون ومنها الاستطراد والمقابلة والاستخدام والافتنان واللف والنشر والاستدراك والايهام والمطابقة والتسليم والمراجعة والمناقضة والمغايرة والتذييل والتتميم والاكتفاء والاحتباك ورد العجز على الصدر ومراعاة النظير والتوجيه وحسن التخلص والاطراد والعكس والجمع والتفريق والتلميح والتسهيم ويسمى الارصاد والتشريع والرجوع والتورية وأنواعها والتوشيح والتكميل والاحتراس والايغال والفرائد والمشاكلة وما لا يستحيل بالانعكاس والتوليد والابداع والتطريز والالتفات والتنكيت والتفريغ والتدبيج

والتفسير ويقال التبيين والتعطف والاستتباع والتمكين والتوهيم والالغاز والأرداف والاتساع وجمع المؤتلف والمختلف والمزاوجة والتجريد وايهام التوكيد والترصيع والتسميط وسلامة الاختراع والموازنة (١) .

يجب الا نعرض على المتأدبين المعاصرين شيئا من شعر الهجاء كالذى دأب عليه فحول الشعراء فى العصر الأموى ، وأكثره اشبه بكلام العامة وان كان منظوما على هيئة الشعر . ويجب الا نعرض عليهم المبالغات التى يأباها الذوق السليم . ويجب علينا قبل كل شىء أن نترك للناس حرية استحسان ما يستحسنونه وان لم يعجب به القدماء ، وأن يستهجنوا ما يرون استهجانه ولو كان من شعر الفحول .

مثل هذا الاختيار يتيح لهم أن يتقبلوا ما يروقهم ، ويرجى بعد ذلك ان يدفعهم هذا العلم وان كان محدودا الى سد النقص الواضح فى ثقافتهم .

---

(١) نقلا عن الوسيلة الادبية .

فحول الشعراء
في عصر الأمويين

كان فحول الشعراء فى العصر الأموى كلهم من شعراء الاحتراف، بلغوا به غايته ، فكانت فى شعرهم كل عيوبه وكل المميزات التى اجمع معاصروهم على الاطناب فى مدحها ، وظن الناس أن شعرهم بلغ الذروة . وشغل الناس بالمفاضلة بين هؤلاء الشعراء ، فكان لكل منهم فريق يتحزب له ، وتسابق هؤلاء الشعراء وتباروا فى المدح والفخر ، وكانت قصائدهم على ما فيها من جودة لا تخرج عما قال غيرهم فى هذين البابين ، الا انهم تفننوا فى باب آخر هو باب الهجاء . وأحسبه كان فى أول الأمر هزلا يراد منه التسلية ، فلما تفاضلوا فيه أمعن كل منهم فى هجاء رفقائه ارضاء لسامعيه . واذا كانوا لم يجرءوا على ذكر الهجاء أمام الخلفاء والأمراء فانهم لم يتحرجوا من الاقذاع والسب الصريح أمام الناس فى المربد . وبذلك نشأ فن جديد لم يعرف من قبلهم ولم يبلغ ما بلغوه منه عند المتأخرين . ومن هنا نشأت القصائد الطوال المشهورة التى تعرف بالنقائض ، وبعضها جيد من غير شك من وجهة نظر شعر الاحتراف .

أدب الهجاء

النقائض مجموعة عجيبة من القصائد الجيدة ، موضوعها التهاجى بين فحول الشعراء . وقد بلغ بهم الاقذاع فى القول حد الاسراف المرذول . وانا لنعجب كيف استساغ الناس فى صدر الاسلام هذا القول الشنيع ، ولم يكن العصر عصر فحش واسفاف . وكيف استباح كبار الشعراء أن يستبوا بأقبح السباب وان يرمى بعضهم بعضا بأرذل الصفات ، وأن يأتى ذلك كله فى خير شعرهم واروع قصائدهم . ولو ان ما قالوا كان اقله صدقا ما بقى لهم شأن عند الأمراء او مقام عند الناس .

ولعل الناس فى عصر النقائض كانوا لا يابهون كثيرا للوقائع التى ترد فى شعر الهجاء ، بل كانوا يذهبون الى (المربد) لا يلتمسون الا الضحك والتسلية . ولم يكن يخطر لهم أن شيئا مما يقال يمكن ان يكون حقيقة واقعة . وكانوا يستمعون الى ارذل السباب فيكتفون بالضحك وينصرفون وهم يقولون « لقد أخزاهم قاتله الله » . مثلهم فى ذلك مثل الفرنسيين فى اغنياتهم الصغيرة التى يتناولون فيها كبار رجالهم بالهزء والسخرية ، دون أن يعلق بأذهانهم شىء مما يجىء فيها من وقائع . كذلك كانت حال الشعراء فى (المربد) ولو أن عربيا ظن أن ما ينسب الى أهله وقومه قد يؤخذ مأخذ الجد لكان نصيب القائل القتل لساعته .

واذا كان التفاخر حملهم على ذكر الأيام والتحدث عن الأنساب وفضائل الاباء والأجداد فان حاجتهم الى السخرية من اعدائهم حملتهم على تناول الأمور الجنسية فى صراحة مزعجة . وقديما عرف الناس أن أكثر ما يضحك السامعين يكون بالحديث عن مثل هذه الأمور . وعرف الشعراء ذلك فأخذوا به ، وتبادلوا الحديث عن أمور جنسية على انها اقرب السبل الى اضحاك الناس من معارضيهم !

ولكن هل كانت لهم في ذلك اصول مرعية ام كان الأمر فوضى تباح فيه الأعراض ويخالف فيه الواقع مخالفة واضحة الكذب ؟ هل كان لهم من أنفسهم وازع ؟

الواقع أن هذه المباريات الشعرية كانت لها قواعد مرعية ؛ شأن الناس في كل المباريات يحدث ذلك مثلا في الملاكمة ، فان الجاهل بها يظنها ضربات ليس لها ضابط ، على حين أن أهلها يعلمون أن لها أصولا لا يصح أن يحيد عنها احد من المتبارين .

فنحن اذا نظرنا الى أساليب الهجاء وجدناها ثلاثة :

أولا — منها ما لا يكون قائما على ذكر عيب بعينه او واقعة بذاتها ، بل يكون مرجع الهجو فيه الى الأسلوب وحده ، مثال ذلك قول جرير :

فغُضَّ الطرفَ إنك من نُمَيرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كلابا

اذ ليس في هذا البيت ما يخجل منه نميرى ، ولكن كلمة « فغض الطرف » لها وقع اليم . وكذلك قوله :

انّ الفرزدق والبعيث وأُمَّه وأبا الفرزدق شر ما أستار

هذا السرد يشعر بالمهانة ، وان لم ينسب اليهم عيبا خاصا . وجرير أجدر الناس على هذا النوع من القول ، وقد احسنه في المديح ايضا حيث يقول :

ألستُم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

هذا أسلوب برىء لا عيب فيه ، والهجو فيه أدبى خالص .

ثانيا — ومن الهجاء ما يكون مرجعه الى صورة مخزية مضحكة . وجرير سباق في هذا النوع من القول كما هو في النوع الأول . انظر الى قوله :

والتغلبي إذا تنحنح لِلْقرى   حك استه وتمثّل الأمثالا!

كان جرير معجبا بهــذا البيت ، ولم يعجبــه منه انه الصق بالتغلبيين مسبة البخل ، بل اعجبه منه انه يمثل صورة مضحكة ، فقال مشيرا الى هذا البيت أن أحدهم لو طعن بالرمح في هذا المكان من جسمه ما استطاع أن يحكه بعد أن قال فيهم هذا البيت .

ولبشار ولع بمثل هذا النوع من الهجو . وبلغ من اجرامــه واســتهتاره أن قال بيتا فيه صورة مخزية ، ولم يكن أمامــه من من يلصقها به فنذرها لأول قادم ! !

ثالثا — على ان اشهر اساليب الهجاء ما ينسب فيه الشــاعر الى غيره صفة سيئة او عملا قبيحــا والذين ينسبون الى غيرهم وقائع تخزيهم لا يجدون أمامهم الا احــد سبل ثلاثة . يسبونهم بما ليس فيهم ، وهو لؤم . أو يسبونهم بما يمكن أن يكون فيهم ، وهو نذالة . أو يسبونهم بما لا يمكن أن يكون فيهــم ، وهو اقل انواع الهجاء مساسا بالمهجو وأشرفها بالنسبة للشــاعر . وان كان ذلك يحمله في الواقع على الاسراف والاقذاع وكانما اتفق الشــعراء على الا يسب بعضهم بعضــا بما فيهم ولا بما يمكن ان يكون فيهم من عيب . ولعلهم كانوا يعدون ذلك جهلا بأصول ادب الهجاء . فان ذلك يكون — على حد تعبير الملاكمين — ضربة تحت الحزام لا يقرها أهل الفن ! .

ولا ادل على هذا من أن « عطية الخطفى والد جرير » كان بخيلا مسرفا في البخل . وابنه جرير نفسه شــهد عليه بذلك . ولم يكن هذا البخل موضع هجو خاص يهجو به الشــعراء جريرا . وكان الفرزدق حصورا فلم يسرف أقرانه من الفحول في ذكر ذلك عنه . انما عابه به من الشــــعراء من هم اقل منهم قدرا ، واجهل بأصول التهاجي . ولنذكر ان من قال هذا البيت في الفرزدق :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً

ولو رضيت رمح استه لاستقرت

لم يكن من فحول الشعراء .

من ذلك ترى ان كبار الشعراء فى صدر الاسلام ابوا ان يتناول بعضهم بعضا بما يمكن ان يكون فيهم حرصا على كرامتهم ، ورأوا ان اشرف الهجو بالنسبة الى القائل انما يكون حين ينسب الى معارضيه امورا لا يمكن ان تكون حقا . والذى يتهم الناس بما فيهم ، أو بما يمكن أن يكون فيهم ، وهم منه بريئون يؤلمهم . اما الذى يتهمهم بما لا يمكن ان يكون فيهم فظلمه لهم اخف وقعا ، وكذبه عليهم اهون ، واحتقارنا له اقل . والقول اذا كان واضح الشطط لا يؤخذ ماخذ الجد . فهم بذلك وضعوا اصلا من اصول الهجاء ، وهو أن اشرفه أن تنسب فيه الى الرجل امور لا يمكن ان تكون فيه . ولم يكن غرضهم من الاقذاع ان يحطوا من قدر زملائهم ، وانما كان غرضهم التسلية والتسابق والابداع فى القول .

بمثل هذا التفسير يستقيم لنا فهم أصول ادب الهجاء عامة والنقائض خاصة . ومنه يتبين أن الاسراف فى الاقذاع لم يكن من شأنه ان يغض من قدر الشاعر أو المهجو . بل لعل هذا الاقذاع نفسه كان حماية للمهجو من ان يظن الناس أن هذا الذى قيل فيه يمكن ، أن يكون صحيحا . ولا نزاع انه اذا كان حتما أن يهجو الرجل الشريف شريفا آخر فخير ما يقول فيه أن ينسب اليه ما لا يمكن أن يكون فيه .

وقد تكون هذه النظرية خطأ او صوابا . وقد تكون اعتذارا عما لا يصح الاعتذار عنه . وقد يكون السبب الحقيقى ما بقى فى القبائل من حمية الجاهلية . فلما منعهم الاسلام أن يتقاتلوا بالسيوف والرماح تراشقوا بالسباب . على انى اربا بكبار ادبائنا ان يستبوا بما لا يليق الا بالسوقة وأراذل الناس .

الفرزدق

يرى علماء التحليل النفسى أن شيئا لا يحدث فى عالم النفس عفوا ، وأن الأعمال التى تتعلق بالنفس لابد لها من سبب ، أن لم يكن ظاهرا ، فهو كامن فى أعماق النفوس يظهره التحليل . فالرجل الذى ينسى اسم صديق له والذى يسبقه لسانه الى خطأ غير مقصود والرجل الذى يختار عددا بعينه حين يطلب اليه أن يختار عددا ما ، كل هؤلاء لا يفعلون ذلك عفوا . والآثار الأدبية عامة ، والشعر خاصة ، من أدق الظواهر وادلها على تلك الأعماق . وترجع الدلالات فى الأعمال الفنية الى غير موضوعها ، فهذا لا شأن له بالبحث التحليلى ، وانما ترجع الى صفات اخفى . وغاية التحليل النفسى أن نتتبع الأسباب النفسية الخفية التى تصدر عنها هذه الآثار الأدبية .

ولعل الفرزدق اسهل الشعراء تحليلا ، فمرضه معروف وآثاره فى حياته وشعره واضحة . كان الفرزدق سىء الخلقة ، سىء الخلق ، سىء التصرف ، عريض الدعاوى ، قليل الاحتشام فى قوله . لم يكن الفرزدق ممن يعنون بالتأنق أو حسن الأدب . دخل على

الخليفة وعليه عمامة كبيرة ، ينشده شعرا فى الفخر ، وقد يكون هذا شجاعة ولكنه ليس من حسن الذوق فى شىء ، ولم يكن متأنقا فى شعره ، وبعضه مضرب المثل فى الالتواء وسوء النظم ، وله بيت سخيف يقول فيه :

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حى أبوه يقاربه

وهو الذى أدخل الألف واللام على الفعل المضارع وهو ما لم يفعله أحد قبله أو بعده حيث يقول « ما انت بالحكم الترضى حكومته ...... » .

ولم يكن من حسن الادب ان يشير الى امراة الامير فى بيته المعروف :

ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مؤتزراً

مثلَ الشفيعِ الذى يأْتيك عريانا

وسنذكر ذلك عند الحديث عن قصته مع النوار .

كان الفرزدق حصورا لا مارب له فى النساء ، وعرف منه ذلك بالرغم مما حاوله من اخفائه عن الناس . ولسنا فى حاجة الى بحث عميق لاثبات ذلك . روى صاحب الاغانى أن احد جلسائه قال له وهو يحدثه « لولا انى أعلم ان زوجك منك بكر ...... » . وقد ذكرنا من قبل ما قاله فيه أحد الشعراء :

لقد أصبحت عِرسُ الفرزدق ناشزاً

ولو رَضِيتْ رمح استه لاستقرت

والاشارة هنا صريحة لا لبس فيها والكناية واضحة . وفى هذا العيب مفتاح شخصيته وسر كل ما وقع منه ووقع له من أحداث

اظهر ما فى المصابين بهذا الداء خيالهم المريض ، فهم يتصورون الوانا من الفحش لا تخطر ببال الأصحاء ، فهو يشبه فى ذلك ما قيل عن (الماركيز دى ساد) من أنه كان به مرض الفرزدق ، فلما سجن فى الباستيل هيأ له خياله المريض الوانا من الشذوذ عرفت من بعده (بالسادزم) . وللفرزدق قصيدة جاء فيها :

وإن هجاء الباهليين دارما لمن يدعُ الأيام ذات العجائب

فليرجع إليها من يريد أن يعرف الى اى حد بلغ الخيال المريض بالفرزدق ، وفيها وصف لنوع من المجون كنا نحسبه مما اختصت به اشنع بيوت الدعارة فى عصرنا هذا حيث الناس مرهقون يبحثون عن كل نوع من أنواع العهر ، وكنا نحسب أن العرب فى صدر الاسلام لا يعرفون شيئا عن ذلك .

ومن آثار هذا المرض الدعاوى العريضة التى لا اصل لها الا فى مخيلة صاحبها . وللفرزدق قصيدة جيدة مطلعها :

عزفت بأعشاش وماكدت تعزف
وأنكرتَ من حدراء ماكنت تعرف

روى فيها قصته مع امرأة ادعى أنها تحبه وانه يحبها ، فدعا الله أن يصيب بعلها بمرض يلهيه عنهما ، وأن دعوته أستجيبت واصيب الزوج فى عينيه فلم يعد يرى ما يجرى بين الفرزدق وامراته . ثم ادعى الفرزدق انه طبيب واخذ يعالج الزوج سنتين وهو يعبث مع امراته كما يشاء ، وذلك حيث يقول :

دعوت الذى سوّى السماوات أيْدُه
ولله أدنى من وريدى وألطفُ

ليشغل عنى بعلها بزمـــانة
تدلّهه عنى وعنهـــا فنسعفُ

بما فى فؤادينا من الهمّ والهوى
فيبرأ منهـــاض الفؤاد المثقف

فأرسل فى عينيه ماءً علاهُما
وقد علموا أنى أطب وأعـــرف

فداويتُه عامين وهى قريبـــةٌ
أراها وتدنو لى مرارًا فأرشف

فى هذا القول الوان من الانحطاط جديرة ان تجعلنـــا نحتقر الفرزدق غاية الاحتقار ، ويزيدنى شعورا بهذا الانحطاط عنده انى طبيب ، وانه ادعى الطب لغرض يدل على أنه ممن لا اخلاق لهم .
على انى لا اريد ان آخذ هذا القول ماخذ الجـد ، فالقصة كلهـــا مختلفـة من أولهـا لآخرها ، ولم يحدث له شىء من ذلك ، بل هى دعوى عريضة من التى تعودناها عند من بهم هذا الضعف .

من مظاهر هذا المرض مجاهرة المصابين به بالفحشاء وبالفسوق وفى شعر الفرزدق شىء كثير من ذلك . ومن العجيب قوله عن جرير « ما احوجه مع عفافه الى جزالة شعرى ، وما احوجنى مع فسوقى

الى رقة شعره » . وهى كلمة غريبة ، فالفرزدق أعلم بالشـــعر من أن يجعل بين الفسوق ورقة الشعر سببا ، أو بين العفــة والجزالة صلة . وكلمة الفرزدق هذه واضحة الخطأ . وحقيقتها لا تتبين الا اذا ذكرنا ما كان عند الفرزدق من ضعف . فهو انما اراد ان يقول : ليت الجزالة دليل على القــوة وليت الرقة دليل على الضعف . ثم خلط ـ عن قصد أو غير قصد ـ بين القوة والجزالة وبين الضعف والرقـــة .

وهو أقل شعراء عصره نسيبا . وأكثر قصائده بتراء ينقصهـــا النسيب الذى تعوده شعراء الاحتراف . ولم يكن ذلك منه تجديدا بل كان أثرا من آثار ضجره بالنســاء وضيق عطنـــه بذكرهن . فلم يكن يلذه أن يشبب بهن فى مطلع قصائده .

على ان رذائل الفرزدق كلها لم تجتمع فى قصة كما اجتمعت فى ما وقع له مع ابنة عمه النوار . وكانت شريفة جميلة وكان لها كفئا ، وكلته ان يزوجها من احد الناس ، فخدعها وزوجهـــا من نفســه فاستشاطت غضبا وحاول أن يسترضيها بقوله :

هَلمى لابن عمك لاتكونى كمختار على الفَرَسِ الحِمَارا

واضطرت ان تستعدى عليه الأمير ، ولجأ هو الى أبنــاء الأمير ليشفعوا له عند ابيهم ، ولكن الأمير استمع الى شفاعة امرأته فقال الفرزدق فى ذلك :

أَما بنوه فلم تَنْفَعْ شفاعتهم وشفعَت بنت مظلوم بن زيّانا

ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مؤتزرًا مثل الشفيع الذى يأْتيك عريانا

وهي ابيات فيها من الوقاحة وقلة الادب ما فيها . وانا لنتساءل لم رفضت النوار الزواج منه ، هل كان ذلك للخدعة التي فعلها الفرزدق حين وكلت امر زواجها اليه ، ام كان ذلك لعلمها بما فيه من عيب . وكرائم السيدات لا يابين أن يتنازلن على أقربائهن في في هذا الباب في رفق وادب واحتشام ، ولعلها كانت تظن انه لن يجرؤ على أن يطلب يدها وهي بدائه عليمة . ولعله كان يعلم أنها لن ترضى به زوجا ، فخان عهدها . واضطر الى طلاقها وقال في ذلك :

ندمتُ ندامةَ الكسعي لمـا غدتْ مني مطلَّقةً نوار

جـــريـــر

كان جرير رجلا متزنا مستقيم التفكير مستوى الأداء لم يحلق في شعره الا نادرا ، ولكنه كذلك لم يسف اسفاف غيره . وصفه المعجبون به انه يغرف من بحر ، وغيره ينحت من صخر وقالوا :

ذهبَ الفرزدق بالفخار وإنما حلوُ الكلامِ ومرُّه لجرير

ومع ما في شعره من قول جيد فان العواطف الانسانية فيه قليلة ، ومن الصعب ان نجعله شاعرا عالميا ، بل كان كله محليا موقوتا ببيئته . وشعره رقيق بسيط ومعانيه مألوفة ،وفي صياغته حسن يرجع اليه الكثير من شهرته وعذوبة قوله . وخير مثال على هذه البساطة مدحه الخليفة بقوله :

ألستُم خير من ركبَ المطايا وأندَى العالمين بطونَ راحِ

وقد اشتهر جرير بالعفة ، ولا احسبه اشتهر بالزهد . ولست ارى الا انه كان شديد الرغبة في النساء ، ولا ارى في شعره ما يسمى عفة الا ان يكون كل ما يراد من هذه الكلمة أنه لم يأت محرما، كان ينظر الى المراة نظرة الرجل البدائي ، يعتقد انها لا يصح أن

يكون لها راى فى نفسها . فاذا ابت احداهن الخضوع لارادته فان لها عنده لجام الجوامح ، وهو سوط اعـــده لذلك . وكان يعرف ان للشباب عليه فضلا فى هذا ، ولكنه لم يكن يعد ذلك سببا فى جموح جاريته . وحديثه مع هذه الجـارية يدل على نفسيته تماما . قالَ فيهـا :

إذا ذكرتْ زيدًا ترقرق دَمْعَها بمطروقةِ العينين شوساء طالح

تبكى على زيد ولم تر مثلَه صحيحًا من الحُمّى شديدا الجوانح

أعزيلكِ عما تعلمينَ وقد أرى بعينيك من زيدقذى غير بارح

فإن تقصدى فالقصدُ بعضُ خلائقى وإن تجنحى تلقَى لجام الجوانح

وقد حمله زيد هذا عناء كثيرا . قال فيه :

تكلفنى معيشةَ آل زيدٍ ومن لى بالصَّلائق والصناب

تقول ألا تضم كضم زيد وما ضَمّى وليس معى شبابى

وجرير فى هذا رجل طبيعى يحب النساء حبا واضحا ، ولكنــه كان بريئا من كل عقدة نفســـية ـ كما يقول المحدثون ـ ولم يكن يفهم النسيـاء فهم بشـــار ، ولم يكن يفهم مياسرتهن وعسرهن . فكلهن عنده سواء يجب أن يخضعن لرغبته ، فان أبين فلهن منـه علاج هو السوط ! .

بشار بن برد

لا اريد أن أطيل الحديث عن شعر بشار ولا أن استقصى اخباره ولولا أن تحليله ضرورى لتتمة ما بدأناه من التحليل النفسى لكبار الشعراء العرب لما اقدمت على البحث فى شعره لأن حديثه يطول .

يقول بشار انه هجا جريرا وهو صبى ، ولو رد عليه جرير حينذاك لكان اشعر الشعراء ، من ذلك يتبين انه كان يريد أن يتخذ الهجاء وسيلة للشهرة ، فلما اصبح شاعرا معروفا ظل هذا ديدنه . ولم يكن يعنى كثيرا بالقيم الخلقيـة بل كان مسرفا فى الاستهتار ، ودأب على وصف النساء وصفا مكشوفا الى اقصى حد .

كان بشار اصلا شـاعر احتراف ، ولم يكن له حظ من شعر الطبع الا فى باب العلاقات بينه وبين النساء وهو الذى يقول :

لايؤيسنك من مخدَّرة   قول تغلظه وإن جرح
عسر النساء إلى مُياسرة   والصعبُ يمكن بعد ماجمح

وليس هذا تفاخرا اجوف بل كان حقيقة يدل عليها الكثير من الادب المكشوف الذى روى عنه . والذى يعنينا هنا أن نقرر أنه كان

شديد الثقة بنفسه فى هذا الباب ، رغم قبح منظره . وهو يشبه فى هذا ما روى عن (ميرابو) الذى لم يكن آية فى الجمال ، وكان مع ذلك يقول « دعونى مع أجمل النساء ساعة واحدة » . وليرجع الى الأغانى من يريد أن يعرف أكثر من هذا عن مجون بشار وصراحة الفاظه فى غير احتشام .

النابغة الذبياني

النابغة الذبياني شاعر احتراف من الطراز الأول ، شهد له بذلك معاصروه حتى قيل أنه كان يجلس مجلس الحكم بين الشعراء في سوق عكاظ ، ولم يجدد النابغة شيئا في موضوع قصائده ولا في شكل القصيدة ومع ذلك فان في شعره رواء خاصا به . عرف ذلك بعض النقاد القدماء فقال أحدهم « ما كان زهير بن أبي سلمى يصلح الا أجيرا عند النابغة » ، وهي كلمة نابية لأن شعر زهير كان شعرا ممتازا وان كان يختلف كل الاختلاف عن شعر النابغة . ولعل قائل هذا القول كان من الذين يرون أن الأخلاقيات ليس فيها من الجمال ما يجعلها صالحة للشعر الجيد . وسنعرض للحكمة في شعر زهير عندما نقارنها بالحكمة في شعر المتنبي وبينهما بون شاسع .

والذي يعجبني من شعر النابغة الذي كان في أول عهده شعر احتراف خالص ، أن فيه هدوءا واطمئنانا كالخيل الكريمة التي تسبق غيرها ، حتى اذا بلغت قصب السبق لم تجد بها بهرا تتقطع معه أنفاسها ، وكأنما وراء جهدها الذي بذلته جهدا آخر تستطيع أن تبديه أو تبذله لو طلب اليها ذلك . كذلك كان شعر النابغة

لا تحس انه بلغ غاية الجهد فى نظمه ، وانه لم تبهر انفاسه ولم يلهث من جراء ما بذل من جهد .

ثم وقعت الواقعة بينه وبين النعمان وكان لهـــا أكبر الأثر فى حياته ، غيرته ما بين عشية وضحاها الى شـــاعر طبع ، يعبر عن احساساته تعبيرا صادقا مخلصا . ولا احسب ان أحدا له أقل علم بالشعر العربى يجهل قول النابغة :

أتانى – أبيتَ اللعن – أنك لمتنى
وتلك التى أهتمُ منها وأنصب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب
فإن كنت قد بلغت عنى خيانةً
فمُبلغك الواشى أغش وأكــذب
فلا تتركنى بالوعيد كأنَّنى
إلى الناس مطلٌ به القار أجـــرب
فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب
ولستَ بمستبق أخا لا تلمّه
على شعَث . أىّ الرجالِ المهذبُ

وهو القـائل :

ولا أنا مأمونٌ بشيء أقولُـــه
وأنتَ بـأمر لا محالةَ واقــعُ

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلتُ أن المنتـأى عنك واسعُ

ومن اجمل قوله فى الليل :

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذى يرعى النجوم بآيب

ولا بد أن نفسر انزعاج النابغة من غضب النعمان عليــه . فمن الخطأ أن نقول ما قاله الحطيئة عن نفسه وعنه ان بهما ضعة ، مع ان النابغة كان من الاشراف وكل ما قيل عنه هو أن الشعر غض من قدره . ولعل الناس حسبوا أن الافراط فى الاعتــذار ذلة ، وان عاطفة الخوف والقلق والرهبــة من علامات الضعة ، وأن التهافت على موائد الملوك بعد غضبهم على ندمائهم لا يعد من صفات الأنفــة والكبرياء . والواقع ان النابغة كان محترماً ، ومن الادلة على ذلك أن شــعره كان فيه عيب هو الأقواء (١) ، ولم يجرؤ احد على أن يجابهه بذلك ، فدسوا عليه قينة تغنى شعره وجعلت تمــد القوافى حتى فطن النابغة الى الاقواء فتجنبه .

ومن الخطأ أن تقول انه كان يخشى بطش النعمان به ، فالنعمان لم يكن ملكا بالمعنى المعروف ، بل كان على منظرة من منــاظر الحيرة يحمى ثغور فارس من اغارة الأعداء عليها . ومن الخطأ أن نقول ان

(١) الاقواء اختلاف اعراب القوافى فى القصيدة الواحدة .

النابغة تهافت على العودة الى قصر النعمان لأنه كان يأكل فى صحاف الذهب والفضة من عطايا النعمان . هذا غير معقول ، ولعل كسرى نفسه لم يكن يأكل فى صحاف الذهب والفضة ، فأنى للنعمان أن يكون له ذلك ، وانى له أن يهب للنابغة صحافا من المعادن الثمينة .

فما الذى افتقده النابغة حين طرد من قصر النعمان ؟

جاء فى الأغانى أن أحد النـاس قال كان النابغة والله مخنثا . فقلت وما علمك به ، أرايته قط ؟ قال لا والله ، قلت : فأخبرت عنه ؟ قال لا . قلت فما علمك به ؟ قال اما سمعت قوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطـه

فتناولته واتقتنـا باليـد

ثم قال والله ما يحسن هذه الاشارة ولا هذا القول الا مخنثكم ! وفى هذا الرأى بالطبع اسراف كثير .

والذى نراه غامضا فى حياة النابغة هو أمره من النعمان وعلينا أن نبحث فى ما فقده النابغة حين غضب عليه النعمان ، وفى ما كان يفيده منه حين كان راضيا عنه . واذا اردنا تفسيرا لهذا الغضب فلا بد لنا من البحث فى قصة المتجردة ، وهى قصة عجيبة لا تستقيم عقلا على النحو الذى رواه رجال الأدب . أشخاص هذه القصة أربعة : النعمان والنابغة والمنخل والمتجردة . اما النعمان فكان دميما ابرش قبيح المنظر . وكانت المتجردة جميلة وان يكن جمالها مما لا يسيغه الناس اليوم . كانت عبلة مفرطة السمنة ، وكان المنخل من اجمل العرب وكان يتهم بالمتجردة . ولعل ذلك لم يكن خافيا على النعمان . وسأل النعمان النابغة يوما أن يصف له امرأته . وفى هذا وحده دليل على أن العلاقة بينهما لم تكن تخلو من المجون والعبث والفحش وعلى أن الاحتشام والبعد عن التبذل والعفة لم تكن صفات غالبة عليهما .

فلما وصف النابغة امرأة النعمان ذلك الوصف المشهور غضب النعمان عليه غضبا شديدا حتى طرده . ولا ندرى لذلك سببا ، فالنابغة لم يتطوع لهذا الوصف . بل كان قوله استجابة لرغبة النعمان ساعة لهو . قالوا أن المنخل وشى به عند النعمان . ولعله أراد أن الوصف وصف خبير بالنساء . واذا كان الأمر كذلك فما الذى يغضب النعمان فى هذا . ويباح للشاعر حين يصف شيئا أن يبلغ فيه أقصى جماله فان طابق ذلك واقع الأمر فى حالة بعينها فليس ذلك دليلا على معرفته المتجردة .

ولعل الذى غاظ النعمان أن يكون النابغة من حذاق الرجال ـ على حد تعبير الجاحظ ـ واذا كان الأمر على هذا النحو فما الذى يدعو النعمان الى هذا الغضب البالغ على النابغة اذ علم عنه ذلك . الا يمكن أن يكون بين النابغة والنعمان سر لا نعرفه ، ولعله سر غير برىء . ولم يكن النعمان بعيدا عن هذا اللون من المتعة الحرام . فقد كان عمه قابوس بن المنذر والزبرقان بن بدر وأبو جهل وطفيل بن مالك وهم من أشراف قومهم مصابين بما سماه المعرى الداء العضال (١) .

وقد حدث لبشار أن طلب اليه الخليفة أن يصف جارية لقيها خارجة من الحمام فوصفها بشار وصفا لا يقل مجونا وفحشا عن قول النابغة ، فلم يغضب الخليفة ولم يطرد بشارا .

لم يكن غضب النعمان غيرة منه . فان غيرته لم تكن على المتجردة . وقد تكون غيرته من النابغة ان علم عنه حذقا ليس للنعمان منه حظ كبير .

---

(١) عرف الناس كثيرا من اسرار الحياة الخاصة لاكبر رجال الفن العالميين ابان النهضة الاوربية وخاصة فى ايطاليا ، وفيها ما يشبه موقف النابغة من النعمان .

وللمعري قطعة في رسالة الغفران جاء فيها أن الثقات سئلوا كيف تروون قول النابغة اذا نظرت واذا لمست واذا طعمت واذا نزعت أبفتح التاء ام بضمها ؟ فيقولون بفتحها . والظاهر أن المعرى كان يختار الضم على انها من قول النعمان عطفا على الأبيات السابقة

زعَم الهمامُ بأنّ فاها باردٌ عذبٌ ، إذا ماذقته قلت ازدد

زعم الهمامُ ولم أذقه أنه يشفى ببرد لثاتها العطش الصدى

لا نريد ان نسرف في سوء الظن . فقد تكون القصة كلها موضوعة لا أصل لها . وهي على كل حال غير مقبولة عقلا على النحو الذي ترويه كتب الأدب .

وان كانت وقعت حقا فان الأدب العربي مدين للنابغة بشعر جميل وقول صادق ، ولا يكون قوله دليلا على الضعة والذلة ولكن يكون ندما صادقا على ألوان شتى من لذات الحياة حرمها يوم خرج من قصر النعمان .

* * *

لم أحاول ان أرتب الشعراء الذين تحدثت عنهم ترتيبا زمنيا ؟ فهذا معروف مشهور ، وانما قسمتهم الى شعراء طبع وشعراء احتراف ، وبدأت بمن كان في شعره مقطوعات من شعر الطبع (امرؤ القيس) ، ثم ذكرت شاعرا جعل كل شعره من هذا النوع (عمر بن أبي ربيعة) ، أما شعراء الاحتراف فقد ذكرت منهم الفرزدق وجرير ، ولا يكاد يكون لهم شعر غيره . ثم ذكرت شاعرا هو أصلا من شعراء الاحتراف المبرزين الا انه حاول شعر الطبع في باب واحد هو المجون (بشار بن برد) . وأفردت فصلا خاصا بالنابغة الذبياني لأن تحليله النفسي يدل على حال تختلف من حال غيره من الشعراء الذين حاولنا تحليلهم النفسي ، (ثم ذكرت شاعرا

هو أصلا من شعراء الطبع غلبت عليه ظروف بيئته فقال من شعر الاحتراف مالا يقل جودة عما قاله (ابو نواس) ، ومن الواضح انه قال ذلك على مضض) .

وحاولت أن أبين علاقة كل واحد من هؤلاء بحالتـــه النفسية وخاصة ما يتعلق بموقفهم من المغامرات مع النســـاء . وبينت أن امرؤ القيس اخفق في مغامراته مع كل من حاول التحبب اليهن ، شريفات كن أو فاجرات او محترفات . وبينت أن عمر بن ابى ربيعة نجح فى كل مغامراته ، فكن يتوددن اليـــه وان لم يعترفن بذلك صراحة ، خوفا من ان يشهر بهن ، ونجح في تودده اليهن وكن جميعا من كرائم السيدات . وذكرت ما كان من اخفاق الفرزدق مع جميع النساء ، وبينت أسباب ذلك ، وشرحت ما كان به من مرض أدى الى هذه الحال التى جعلت حياته كلها بل وشـــعره كله محل نقد شديد . وبينت أن جريرا كان رجلا طبيعيا مع النساء ولم يكن عنده من العقد النفسية شيء . وذكرت أن بشار بن برد كان ، على ما به ؟ أكثر هؤلاء الشعراء قدرة على اجتذاب النساء اليه أما النابغة فله شأن غير شأن هؤلاء الشعراء .

محاولة التحليل النفسى للشعراء ، والفنانين والقادة الزعماء من مشاهير الرجال عمل قد يكون فيه خطأ واسراف وشطط ، وقد يكون فيـــه صواب ودقة وتعمق . هـــذا الشك في نتائج التحليل النفسى قائم دائم . ومهما تكن الأحكام التى تصـــدر من التحليل النفسى صادقة أو غير صادقة ، علمية أو غير علمية ، فانها دراسات ممتعة لا يرى المحدثون اغفالها .

أبو نواس

ابو نواس شاعر محبب الى الأدباء المحدثين ، درسوا حياته وشعره وأخلاقه دراسة عميقة مستفيضة فيها كثير من الطرافة ، وبعضهم حاول أن يصف أبا نواس بصفات نفسية مستمدة من مصطلحات الغربيين ، وبعض هذه المصطلحات لا يتفق مع نفسية أبي نواس الا بتأويل بعيد ولا اريد استقصاء ما في شعر ابي نواس من صفات خاصة به ، وساقصر بحثي على ما في ديوانه من أمثلة على شعر الطبع .

اراد ابو نواس أن يحتذي شعراء الاحتراف ، ليدل بذلك على انه لا يقل عن اكبر شعراء هذا الفن اتقانا له ، وانه انما عدل عنه الى شعر الطبع احتقارا لما جرى عليه العرف حينذاك .

وقد حار الناس في تفسير قوله يمدح هارون الرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشِّركِ حتى إنه ‏ ‏ لتخافُكَ النُّطَفُ التي لم تخلقِ

وقال النقاد ان هذا من المبالغات السخيفة التي لا يقبلها العقل ، ولي في هذا البيت راي ، لم يكن ابو نواس من الجهل بالشعر بحيث

لا يدرك ما في هذا القول من سخف ، ولكنه اراد أن يتهكم من طرف خفى على المبالغات التى داب عليها شـــعراء الاحتراف . والبيت صورة كاريكاتورية للمبالغات التى تعودها الشعراء .

بدأ أبو نواس باظهار احتقـــاره للذين ظلوا يعجبون بالشـــعر القديم ، وله فى ذلك اقوال كثيرة :

عاجَ الشقىُّ على رَسْمٍ يسائِلُه   وعجتُ أسألُ عن خمّارة البلد
يَبْكى على طَلَل الماضين من أسد   لا دَرّ دَرك قل لى من بنو أسد
لاجفَّ دمعُ الذى يبكى على حجر   ولاصَفا قلبُ مَن يصبو إلى وتد

وله كثير من المقطوعات فى هذا المعنى . ولا اظن ان هذا من اثر الشعوبية التى كانت منتشرة حينذاك ، وانما هو احتقار لشـــعراء الاحتراف وابقائهم على العرف الذى جرى عليـــه الأعراب قبل أن يبلغ العرب من الحضارة ما بلغوه فى عهد العباسيين .

وابو نواس من أكبر شـــعراء الطبع ، وشعره من خير الأمثلة عليه . والعجيب فى أمره انه برز فى شعر الاحتراف ومدح الخلفـــاء كما مدحهم الآخرون . واحسب أن ذلك كان على مضض منه ، لأنه لا يوافق طبيعته .

ونحن نظلم أبا نواس حين نقول أن خمرياته هى خير شعر ، وهى فى الواقع شعر جيد من جهة انه شعر طبع . على أننا نجد فى شعره صورا أخرى من شعر الطبع غير الخمريات . وهو من أقدر الشعراء العرب على التصوير . وسنعرض لهذا عندما نتحدث فى فصل لاحق عن التصوير فى الشعر العربى .

انظر الى قوله فى الشباب :

كان الشبابُ مطيةَ الجهلِ ومحسّن الضحكات والهزلِ
كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت أخطر صيّت النعل
كان المشفّع فى مآربــــه عند الفتاةِ ومدركَ النيلْ
والباعثى والناسُ قد رقَدوا حتى أبيت خليفة البعل
والآمرى حتى إذا عزمتْ نفسى أعان يدىّ بالفعل
فالآن صرتُ إلى مقاربة وحططتُ عن ظهر الصبا رحلىَ

يقول أن الشباب هو الذى جعل الهزل حسنا ،وانه هو الجمال عندما يمشى مختالا (صيت النعل) وأن الشـــباب هو الذى كان يشفع له عند النساء فيدرك منــاه منهن ، وانه هو الذى دعاه الى الصعود الى النساء ليخلف بعولهن ، وانه هو الذى ينفذ له بالفعل ما يعــزم عليــه .

هذا شعور صادق بالشباب وما يعمله فى حياة الانســان ومثله قول القائل :

ولقد نزعتُ مع الغواة بدَلْوِهم وأسمت صرحِ اللّهوحيثأساموا
وبلغتُ ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارةُ كل ذاك أثام

على أن هذا القول أشبه بالحكمة منه بالشــــعر الذى جاء به أبوَ نواس تفصيلا .

ومن الظلم للمتنبى أن نقارن بين قول أبى نواس وبين قوله هو :

منى كنّ لى أن البياض خضاب
فيخفى بتبييض القرون شباب

والمتنبي معروف بكثرة مطالعه السيئة ، وهذا البيت من أسوئها . ومع اعترافنا بأن ذكر الشباب في مطالع القصائد ليس الا عرفا ، مثله في ذلك مثل الاطلال والتشبيب ، فان المقارنة بين القولين توضح لنا بالضبط كل ما نحبه من شعر الطبع ، وكل ما نكرهه من شعر الاحتراف . والمتنبي يريد أن يقول انه يتمنى أن يكون بياض شعره خضابا ، وأن يكون تحته شباب خفي . والعاطفة مكذوبة والتعبير عنها فيه التواء . ومثل هذا في شعر المتنبي قوله :

خُلقت أَلُوفًا لو رددت إلى الصِّبا

لفارقتُ شيبي موجَع القلب باكيا

عاطفة مكذوبة لا تدل على شعور صادق بالشيب والشباب .

شعر أبي نواس يعطينا صورا جميلة صادقة عن حياة اللهو والمجون في بغداد في ذلك العهد ، وليس لنا أن نعيب عليه هذا الوصف الشائق للمجون ، فالرجل لا يدعي أنه واعظ أو أنه يدعو الى الأخلاق الكريمة والزهد في لذات الحياة . وانما هو شاعر يتمتع بالحياة ويصفها وصفا شائقا .

ولا أريد أن أطيل في وصف خمرياته المشهورة ، وأكثرها معروف عند الأدباء جميعا . ثم جاء بعده من حذا حذوه ، وأسرف الشعراء في ذكر الخمريات دون أن يكون ذلك من طبعهم . بذلك وقع شعر الخمر في ما وقع فيه الشعر العذري من قبل حتى كاد يصبح شعر احتراف . وكذلك فعل أكثر الشعراء بالبكاء على الأطلال بعد أن وضع لهم امرؤ القيس أنموذجا لذلك على أن امرأ القيس كان صادقا ومن جاءوا بعده كانوا محترفين .

وقد يرى كثير من المحدثين أن أكثر وصف الخمر يكاد يكون مقصورا على أنها صفراء فوقها حبب أبيض ، فهي فضة ذهب .

والعيب فى ذلك على مقلدى ابى نواس ولا ذنب له فى ما عرض لشعر الخمريات بعده من ابتذال .

ويخيل الى ان ابا نواس لم يقل شعره فى الخمـر وهو قابع فى داره ، وانما قاله وهو متلبس بجريمته .

ولا نستطيع ان نغفل شعر بشار بن برد ، وهو شاعر مجيد من غير شك ، ولكنى أراه شاعر احتراف بطبيعته ، وانه لم يقل الشعر على سجيته الا حين تناول المجون ، وهو مسرف فى ذلك الى اقصى حد ، وفيه فحش لا نستطيع أن نذكره هنا ، وعلى من يريد ذلك أن يبحث عن اخباره فى كتاب الأغانى . وأحسب أن مجونه كان مقصودا لذاته ، وأن شعره فى هـذا الباب اقرب ما يكون الى ما نسميه الآن الأدب المكشوف . وسنعود الى بشار عند الكلام عن فحول الشعراء وأكثرهم من شعراء الاحتراف .

الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى

الجمــال فى الشــعر أكثر تنوعا وأصعب تحليلا وأعصى على التحديد من الجمال فى غيره من الفنون . ويختلف الناس اختــلافا شديدا فى تقديرهم لجمال الشعر ، وتختلف معايير هذا الجمال فى الأمة الواحدة من عصر الى عصر . ولا أحسب أن أحدا من أهل أمة ما يستطيع أن يدرك كل الجمال الذى يكون فى شعر أمة أخرى . ذلك أن جمال الشعر نوعان ، نوع انسانى عام يتناول وصف النفس البشرية وعواطفها وتأثرها بمختلف المؤثرات ، وهــذا النوع من الجمال يفهمه أكثر الناس على اختلاف مشاربهم فهما عقليا . وهناك الجمال الحسى الخاص الذى لا يدركه ادراكا تاما الا أهل اللغة التى كتب بها الشعر . وهذا الجمال الخاص يتعلق بالكلمات جرســها ومعناها وتاريخها وقوة تأثيرها وما يحيط بها من ظلال دقيقــة وما يكون فى تركيبها من موسيقى . والناس « يحسون » بالجمــال الخاص ولكنهم « يفهمون » الجمال الانسانى العام .

ويختلف الشعراء فى عنايتهم بأحد هذين النوعين من الجمال ، فمنهم من يعنون بالجمال الخاص ، يحرصون على موسيقى الشعر

أشد الحرص . وآخرون يعنون بالمعانى الانســانية العالمية . ومن الطبيعى أن تعنى كل أمة بالجمال الخاص فى شعرها لأن أهلها اقدر على ادراكه والشعور به . ومن الطبيعى أن يكون الغرباء أكثر تعلقا بالصفات الانسانية فى شعر غيرهم . ويقول (فيرلين) أن الشــعر لا قيمة له الا بقدر ما يكون فيه من موسيقى ، أما البلاغة فيجب أن « تلوى عنقها » . هكذا عبر عن احتقاره للبلاغة فى الشعر . وأكثر الناس على هذا الرأى حين يتحدثون عن شعرهم ، وأكثرهم على غير ذلك حين يتحــدثون عن شعر غيرهم ، لصعــوبة احساسـهم بالموسـيقى فى غير لغتهم مهما يكن اتقانهم لها . وهل يسـتطيع غير الفرنسى القح أن يشعر بالموسيقى التى فى بيت راسين :

Phe'dre, Fille do Minos de Pasiphar

وهو البيت الذى قال عنه (اندريه جيد) أنه من أجمل ما فى اللغة . وهل يستطيع غير الانجليزى ان يشعر من تلقاء نفسه شعورا خالصا بجمال البيت الذى جاء على لسان (ماكبث) .

After life's fiit ful Fever he sleeps well

يشيد الانجليز بجمـال هذا البيت الذى نصــفه الأول يدل بموسيقاه على اضطراب الحياة وقلقها كأنها الحمى ، ويدل نصــفه الثانى على الهدوء التام والسكينة (١) .

ونحن وحدنا قادرون على ادراك الجمال الحسى الخالص فى الشعر العربى نشعر به ونطرب له ، ولا يشعر به غيرنا . وعلينـا وحدنا يقع عبء البحث فيه عن هذا الجمـال الخاص ، تقيسـه بمعايير جديدة تكون أقرب الى ذوقنـا الحديث . قد يقال اننـا ما دمنا ندرس الشعر العربى فيجب ان تقيس جماله بما كان يطرب له العرب أنفسهم . وهذا قول خطأ لأنه يخالف طبائع الأشـياء . والأذواق فى الأمة الواحدة تتطور على الزمن . وقد تؤدى المعـايير

---

(١) قيل مثل هذا فى بيت جميل :

ألا ايهــا النوام ويحكمو هبـوا   أسائلكم هل يقتل الرجل الحب !

الجديدة للجمال الحسى فى الشعر العربى ، الى الاعجاب بشعر قديم لم يقدره القدماء ، والى نبذ كثير مما كان يرى أسلافنا أنه شعر جميل .

ومن الحق أن نعترف أن أكثر الشعر العربى يحظى بالجمال الخاص القائم على اللغة وموسيقاها . والذين يعجبون بشعر جرير مثلا يجدون من الصعب أن يجعلوه شعرا انسانيا عالميا ، لأن جماله كله من النوع الحسى الخاص .

الموسيقى في الشعر العربي

يقول العرجي :

فهيدي جوان على حبها ... أليس بعدل عليها جوانم

* * *

الشطر الأول من هذا البيت فيه حركة موسيقية بطيئة تمثلها المقاطع الطويلة وهي حركة توحي بالاطمئنان والثقة . أما الشطر الثاني فحركته سريعة ومقاطعه قصيرة ، وهو يوحي بقلق الشاعر وشكه في أن يكون الأمر على خلاف ما ظن . ويشعر بتلهفه على التأكد من أن اطمئنانه له ما يسوغه . والحركة في كل من السطرين تعبر عن احساس الشاعر تعبيرا جميلا ، وانتقاله من حركة الى اخرى انتقال جميل . هذا كله يجعل للبيت موسيقى خاصة . وهو عندي من اجمل أبيات اللغة على ما فيه من بساطة وبعد عن المحسنات من أى نوع تكون . كان جوان (بضم الجيم) رجلا صالحا تقيا لا شأن له بالمحبين وأحبابهم ، وروى انه غضب أن رأى العرجي يقحم اسمه في مثل هذا المقام . ولا اظن أن الشاعر اختار اسمه الا

لـما رآه من مطابقة للموسيقى التى فى البيت . وقد يكون اختياره لجوان دون غيره من الأسماء المشابهة عملا من أعمال العبث الخفيف الذى يعجب الغزليين ، فهم يلذهم أن يثأروا لأنفسهم من تزمت الصالحين والأتقياء ، وتساميهم عليهم .

قد يقال ان بحورا بذاتها أو رويا بعينه يكفل للشعر موسيقاه. وسنرى فيما بعد أن القصيدة الواحدة تكون فيها أبيات موسيقية واخرى على نفس الروى ليس فيها من الموسيقى شىء .

قال لى بعض الموسيقيين انه يخشى أن تكون الحركة الموسيقية التى اتحدث عنها نتيجة لطريقة الأداء وهذا صحيح الى حد غير بعيد . والأدلة على أية حال عامل كبير فى ابراز الصفات الموسيقية، والأداء لا يمكن أن يحول البيت غير الموسيقى الى بيت موسيقى .

وليس عجيبا أن تكون العناية غير الواعية بالموسيقى فى الشعر قد بدأت فى المدينة عند الشعراء الغزليين .

يقول عمر بن أبى ربيعة :

تشكّى الكميت الجرى لما جهدته

وبيَّن لو يستطيع أن يتكلما

* * *

يخيل الى ان فى هذا البيت حركة موسيقية تمثل جرى الخيل وسيرها خببا . وهذا مثل نادر جدا من امثلة التصوير الموسيقى الرائع .

وقد سبق لى أن ذكرت فى دراسة لشعر المتنبى انه لم يكن ذا حظ من القدرة على ابراز الصور الحسية على نحو يزيد فى جمالها . ولا اعد هذا عيبا ولا نقصا وانما هو تقرير للواقع . ولست من الذين

يقولون ان الشاعر يجب ان يبرز فى كل فنون القول لأن هذا لا يصدق الا على صغار الشعراء . وما زلت ابحث عن سر اعجاب الكثيرين بشعر المتنبى حتى تبينت أن له موهبة موسيقية ، قد تكون سر سلطانه على المتذوقين للأدب العربى ، وهو سلطان لا نزاع فيه .

من ذلك قوله فى قصيدته الجميلة :

ألا كلُّ ماشية الخيزلى ... فدا كل ماشيةِ الهيذبى (١)
وكل نجاة بجاوية ... خنوف ومابي حُسن المشى
ولكنهنَّ حبالُ الحياة ... وكيد العداة وميط الأذى

الموسيقى فى هذا البيت الأخير واضحة جميلة وفيه تمثيل لسير النوق الكريمة سيرا هادئا لينا تتتابع خطاها فى سهولة ، وتتشابه حركة سيرها كما تتشابه العبارتان حبال الحياة وكيد العداة .

فى هذه القصيدة بيت آخر :

وشعر مدحت به الكركدنّ ... بين القريضِ وبين الرقى

الشطر الأول سريع الى حد ما . اما الشطر الثانى فحركته بطيئة والمقابلة بينهما جميلة . وليست من قبيل المقابلات اللفظية . والهبوط من السرعة غير المسرفة الى البطء الواضح يمثل هبوط آماله حين مدح من لا يستحق المدح .

---

(١) يعنى كل امرأة تمشى الخيزلى فداكل ناقة تمشى الهيذبى اذا كانت سريعة ، لا لانه يفضل مشية على اخرى ، ولكن لأن النوق حبال الحياة .

وفى القصيدة بيت مشهور :

وكم ذا بِمصرَ من المضحكا ... ت ولكنّه ضَحِكٌ كالبكا

هذا البيت فيه تفكير ودقة فى النقد وشعور بالغضب والأسى ، ولكنه خال من الموسيقى التى رأيناها فى الأبيات السابقة . وأؤكد للقارىء أن رأيى فى هذا البيت لا يرجع الى ما فيه من هجاء لمصر . وما زلت على رأيى القديم أن ما قاله المتنبى أثناء اقامته فى مصر هو خير شعره كله . وللمتنبى قصيدة جميلة جدا مطلعها :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهُمْ من شأْنه ما عَنانا

وتوَلَّوا بِغُصَّــــةٍ كلهم منــــــه ... وإن سرّ بعضهم أحيانا

البيت الثانى شطره الأول متمهل نوعا وشطره الثانى واضح البطء . وكلتا الحركتين تطابق المعنى مطـابقة عامة ، وموسيقى البيت توحى بأن الزمان حين يأتى بالغصص يأتى بها سراعا ، وحين يأتى بالسرور يأتى به على مهل .

وليس فينا من لا يعجب بقصيدة المتنبى :

عيدٌ بأية حال عدت ياعيد ... بما مَضَى ، أم لأمرفيك تجديد

أما الأحبةُ فالبيْداءُ دونهمو ... فليت دونك بيدا دونها بيد

الشطر الثـــانى من البيت الأخير فيه موسيقى واضحة . وفى قوله « بيدا دونها بيد » تمثيل لبعد الشقة بينه وبين من يحب بأكثر مما تدل عليه الألفاظ وحدها .

ولابد أن أشير هنا الى قصيدة المعرى التى حفظناها جميعا وقوله فيها :

وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ العهدُ هوانُ الآباء والأجدادِ

وكل كلمة فى هذا البيت ذات مقطع طويل ، والحركة الموسيقية فيه تنساب انسياب الماء فى النهر الهادىء ، الا قوله « وان قدم العهد » . فهذه الجملة المعترضة تختلف اختلافا تاما عن بقية البيت، كأنها صخرة تعترض سير الماء ، وللجملة المعترضة معنى يزيد فى قوتها أن تكون معترضة موسيقيا أيضا .

على انى اعتقد ـ وقد أكون مسرفا فى هذا الاعتقاد ـ أن اجمل قصيدة عربية ، من الناحية الفنية هى قصيدة (تأبط شرا) الذائعة الصيت :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه مايطل
خلف العبء على وولّى أنا بالعبء له مستقل(١)

فى هذه القصيدة الشيء الكثير من الجمال الذى سميناه الجمال الانسانى العام . ويستطيع كل قارىء عربيا كان أو غير عربى ان « يفهم » هذا الجمال . فيها كل عواطف البدو حين تشتد بينهم العداوة ، وفيها الحرص على الأخذ بالثار ، وفيها الفخر والشجاعة والصرامة واباء الضمير ، ومدحه للقتيل يزيد فى فداحة الخطب ،

ومدحه لنفسه يجعله أهلا للاخذ بالثأر . كل هـذه المعانى تصف البداوة وصفا رائعا . ومثلها كثير فى الشعر العربى ، الا أن اجتماع هذه العواطف فى قصيدة واحدة تزيد فى روعتها .

ولكن القصيدة تمتاز بموسيقاها امتيازا واضحا ، والحركة فيها حركة خاصة جدا ، اكثرها سريع وبعضها بطىء كأنهـا حركة الخيل فى الكر والفر فى حومة الوغى عند التقاء الفرسان ، واصواتها تعلو وتهبط على غير نظام ، كأنها صوت النار الموقدة حين يلقى فيها الوقود ، فتنفجر تفجرات جافة قصيـرة تتتابع سراعا ، ثم تبطىء أحيانا . وهو تعبير ليس كمثله تعبير عن روح الشاعر ، جياشـة ثائرة غاضبة ، لا يكاد يستطيع كبحها عن أن تثأر للقتيل لساعتها .

ويلاحظ أن الشعر الذى يمتـاز بجمـال موسيقاه ليس فيه محسنات لفظية أو معنوية . وعندى أن هذه المحسنات تفسد المعنى والموسيقى ، وتذهب بكل ما فى الشعر من جمال حقيقى .

وليس من الموسيقى التى اتحدث عنها أن يكون البيت مقطعـا تقطيعا واضحا ، كما نراه فى شعر أبى العتاهية وبيته المعروف :

أتته الخلافةُ منقادةً إليه تجرّر أذيالَها

هذا القول ليس فيه من الموسيقى شىء ، بل هو اشبه بضرب الدف منه بالموسيقى . وخير من ذلك قليلا قول الشاعر :

ياليل الصبّ متى غدُه أقيامُ الساعةِ موعدُه

. والنغمة راقصة جميلة . ولا يفسدها الا ان موسيقاها لا تتفق مع ما يريد الشاعر ان يشكو منه وهو طول ليل المحبين وبعد الاصباح .

وخير من ذلك كثيرا قول المنخل :

ولقد دخلتُ على الفتاة الخد ر في اليوم المطير

هذه موسيقى خفيفة مرحة توافق روح شاعر ماجن لا يعنيه الا ما يصيب من لذات الحياة . وسواء عليه أن يشرب فيظن نفسه كسرى ، او يصحو فلا يجد الا الشاة والبعير . وهو فى الحالين مرح ماجن مسرف فى المجون الى أن بلغ الغاية حيث يقول :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

وهذه القصيدة على مجونها يطرب لها العربى لموسيقاها . ويفهمها غير العربى لصدق عاطفتها .

التصوير فى الشعر العربى :

التشبيه والاستعارة والمجاز من الصور البلاغية المعروفة فى اللغات جميعا . ولا نزاع أنها تزيد فى جمال الصور الحسية والمعنوية حين يحسن الكتاب استعمالها . هذا اللون من البلاغة كثير فى الأدب العربى عامة وفى الشعر خاصة . ولعله ان يكون فى أدبنا أكثر منه فى الآداب الأخرى .

وكثير من النقاد القدماء كانوا يعدون التشبيهات الغريبة والاستعارات البعيدة أكبر ما يتفاضل فيه الشعراء . وكانوا يعدونها

مقياسا يقاس به التفوق فى روائع الشعر والنثر ، وعيب على بعض كبار الكتاب خلو أدبهم من العاريات المستملحة . من ذلك ما عابه بديع الزمان على الجاحظ حيث يقول « فهلموا الى كلامه (أى الجاحظ) فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله . فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلنا لا » . ولا اظن احدا منا يرى أن هذا عيب فى أدب الجاحظ ، ولا اظن ان الذوق الحديث يضع اسلوب الهمذانى المنمق فوق اسلوب الجاحظ حتى فى أبسط ما كتب . ذلك أن الجاحظ كان يعنى بموضوع ما يكتب أكثر مما يعنى بالتشبيه والاستعارة حين لا يكون لذلك فضل فى ابراز سورة أو ايضاح معنى .

والواقع أن التشبيهات لا تكون شيئا ذا قيمة الا ان تنقل الى السامع صورا من المشبهات اجمل واوضح . اما الاستعارات فقد ذاعت وكثرت حتى اصبح أكثرها مبتذلا . ولا أرى شيئا من الجمال فى قول بديع الزمان فى مقامته الجاحظية « فكل كشر له عن ناب الانكار ، واشم بأنف الاكبار » والصورتان قبيحتان والمحدثون يرون انه يكون أبلغ لو قال فأنكرنا قوله واكبرناه .

ومن التشبيهات التى لا معنى لها قول امرىء القيس .

له أيطلا ظَبيٍ وساقا نعامةٍ ... وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفلِ

وكذلك قوله :

ترى بعرَ الآرامِ فى عَرَصاتها ... وقيعانها كأنّه حب فلفلِ

فاذا كان هذا تشبيها فهو قول هراء — والشعراء عادة لا يتحدثون عن بعر الارام — على انى أعتقد أن هذا البيت لم يقصد به للتشبيه ، وانما أريد به ان عهد الأطلال بسكانها قديم حتى أصبح بعر الارام جافا كحب الفلفل .

وليس من الجمال فى شىء قوله :-

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردفَ أعجازا وناءَ بِكَلْكَلِ

هذا البيت وان كان يدل على البداوة فهو لا يزيد فى وصف الليل شيئا . على حين أن قوله (وليل كموج البحر) قول جميل لأنه يدل على ما كان لليلته هذه التى يصفها من اثر فى نفسه .

ولا اظن احدا فى عصرنا هذا يرى أن امرأ القيس أجاد فى وصفه شيئا واحدا فى حالين مختلفتين بشيئين مختلفين حين قال :-

كأنَّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابساً
لدى وكرها العنابُ والحَشفُ البالي

اذ ليس فى هـذا البيت صورة تجمل وصف قلوب الطير اوضح او اجمل مما يراه الناس فيها .

مثل هذه التشبيهات كثيرة جدا بعضها يثير فينا الضحك مثل تشبيه توفيق البكرى الهلال بأنه « خنجر من ضياء ، يشق الظلماء ، او قلادة ، أو سوار غادة ، او سنانُ لواه الضراب اوَ الليلُ فيل وهو ناب »

والاسراف فى الاستعارة والمجاز قد يكون دليلا على ضعف التاليف وسقم الخيال .

التشبيه والاستعارة والمجاز امور تافهة لاقيمة لها الا اذا كانت فيها صور اوضح او اجمل او اوقع فى النفس من الكلام المجرد . ولا عبرة بما يكون فيها من غرابة .

فمن التشبيهات التى تعطينا صورة واضحة قول عدى بن الرقاع :

تُزْجى أغن كأنَّ إبرة رَوْقِه قَلَمٌ أصابَ من الدواةِ مدادَها

هذا التشبيه رائع حقا لصدقه . فهو يكاد يكون تصويرا فوتوغرافيا ، والمطابقة بين الصورتين تجعل لهذا البيت جمالا عجيبا ، وقد لا نجد له مثيلا فى تشبيهات الشعراء على كثرتها .

وقد يكون فى الشعر صور جميلة دون أن يكون فيه تشبيه أو استعارة ومنه قول امرىء القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها . وهذا يدلنا على ما كان يفعله العذارى من مرح وصخب وسرور يدعوهن الى التقاذف بلحم الدابة المذبوحة ويكاد الانسان يشاهد عبثهن ويسمع ضحكهن . ومن جيد قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا

وفيه صورة لحصانه الثائر المتوثب الذى لا يكاد صاحبه يكبحه .

وقول النابغة :

فإنك كالليلِ الذى هو مدركى

وإن خلتُ أن المُنتأَى عنك واسعُ

هذه صورة جيدة يرى فيها الانسان رجلا فزعا يريد أن يهرب من الليل وهى صورة مخيفة لرجل بلغ به الرعب غايته .

وعندى أن أقدر الشعراء العرب على التصوير أبو نواس واظنه لا ضريب له بين الشعراء العرب فى هذا الباب . ومن ذلك قوله :

ذكر الصَّبوحَ بسحُرة فارتاحَا ... وأملَّه ديكُ الصَّباح صياحَا

أوفى على شرف الجدار بسلفة ... غَرِدًا يصفق بالجناح جَناحا

هذه الصورة واضحة جميلة تتبين فيها حركة الاجنحة عند صياح الديك ، وفى هذا براعة فنية وان لم يكن فى البيت تشبيه قريب ولا استعارة بعيدة .

ومن ذلك قوله يصف فرسه :

فإذا قصرت لها الزِّمامَ سما ... فوق المَقَادم ملطمٌ حــرٌ

فكأنها مُصغٍ لتُسمَعَـهُ ... بعض الحديث بأذنه وَقْرٌ

والصورة التى فى هذا البيت صورة صادقة بارعة فهو يصور لنا فرسه وهى ترفع راسها الى ناحيته كأن باذنها وقرا فهى تتجه الى راكبها تريد أن تنصت الى ما يقول .

وله كذلك بيت يصف رجلا نام فتوسد ذراعه منثنية تحت راسه . والصورة وان كانت مألوفة الا أن وصفها يدل على براعة فنيـة واضحة ، وذلك حيث يقول :

وسلته ثنى ساعده ... سنة حلت إلى شفره

ونحن نظلم أبا نواس حين نقول ان خمرياته أجود شعره والخمريات الجيدة قليلة . ومن الإنصاف أن ننظر الى شعر ابى نواس على أنه أجود الشعر فى التصوير .

ويتضح ذلك حين نقارنه بشعر المتنبى حين يحاول تصوير المحسوسات من ذلك قوله :

فأقبل يَمْشى فى البساط فما دَرَى

إلى البحرِ يَسْعَى أم إلى البدر يرتقى

والصورة التى نجدها فى قوله « كأنك فى جفن الردى وهو نائم » صورة مستحيلة . ومن الذين اجادوا الوصف الصادق الحق الجميل دون اسراف فى التشبيه البحترى وقصيدته مشهورة حيث يقول :

فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائلٌ وأنوشر وان يُزجى الصفوف تحت الدرفس

وقديما أعجب الناس قول أبى المعتز يصف الهلال :

انظر إليه كقارب من فضة قد أثقلته حمولةٌ من عنبر

والصورة واضحة وان كان الشاعر بالطبع لم يشهد قاربا مملوءا بالعنبر ، وعندى أن التشبيه مقلوب ولو كان عند ابن المعتز قارب من فضة مملوء بالعنبر فوصفه انه كالهلال لكانت الصورة اجمل .

ومن الأبيات التى تحدث عنها البلاغيون كثيرا أبيات اطنب الجرجانى فى بيان بلاغتها وخاصة الشطر الثانى من البيت الثالث :

فلما بلغنا من منًى كلَّ حاجة ومسح بالأركانِ من هو ماسحُ
وشدت على ظهر المطايا ركابنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالتْ بأعناق المطىّ البطائح

والشطر الأخير جميل من ناحيتين ، من ناحية موسيقاه التى تدل على حركة بطيئة مستمرة ومن ناحية تصويره للعدد الكبير من المطايا تسير جنبا الى جنب كأنها السيل .

ومع ذلك فانى أرى فى هذه الأبيات مجتمعة شيئا من الضعف يرجع الى قصور النهاية عن بلوغ ما يتوقعه السامع من البداية . فالسامع ينتظر بعد البيتين الأولين شيئا اكبر كثيرا من قول الشاعر :

اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

هذه مقاييس الجمال فى الشعر ترجع الى موسيقاه وما يكون فيه من تصوير صادق جميل .

والمحدثون لا يستطيعون بحال من الاحوال ان يعيبوا على القدماء أسلوبهم فى نقد الشعر .

وقد اهتديت أو ضللت الى شيء يستقيم به تقديرنا لجمال الشعر العربى . وذلك بتقسيمه قسمين : شعر الاحتراف ، وشعر الطبع .

المتنبي

غلبت على المتنبي عاطفتان ملكتا عليه عقله وقلبه وجهده ، حب المال وحب المجد ، وحار بين الامرين أيهما أعز عليـــه . وزاد من قسوتهما أنه لم تكن لديه عاطفة أخرى تعزيه عنهما حين أحس أنهما أفلتتا من يده ، بعد أن ظن أنه منهما قاب قوسين . وكانت به كفاية واحدة هي جودة شعره ، فأراد أن يبلغ بتفوقه في الشـــعر الثراء والمجد . والمأساة الكبرى في حياة المتنبي أنه حاول المستحيل ، اذ لم يحدث لشاعر قبله أو بعده أن بلغ بالشعر وحده الثراء الذي كان يرجوه ، أو الجاه العريض الذي كان يؤمله .

ولا يعنيني أن أترجم لحياة المتنبي ولا أن أشرح خلقــه ، وهل كان حقا من رجال الخيل والسيف أم كانت همته عن ذلك أقصر . وانما يعنيني أن أحلل ما في شعره من ظواهر تدعو الى التســاؤل ، وأن أبين علاقة ذلك بحاله النفسية ، سر هذه الحال النفسية عنـد المتنبي ما يصح أن نسميه الأمــاني الموقة (بفتح الواو) وهي غير الاماني الخائبة ، فان هذه ينتهي أثرها بانقطاع كل أمل في تحقيقها . أما الأماني الموقة فتظل في أعماق النفس تؤثر فيها ، فصاحبهـا

لا يفتأ يسعى الى تحقيقها ، محاولا ان يقنع نفســـه أنه يستطيع التغلب على هذه العوائق متى شاء .

نظرية الأماني المعــوقة معروفــة فى التحليل النفسى ، وبعض العلماء يفسرون بهذه النظرية التصرفات الغريبة التى يقوم بها بعض الناس ــ عن غير وعى منهم ــ وأكثر الأمثلة تتعلق بالحب المعوق . من ذلك أن الرجل يكون على موعد ما ، ولديه متسع من الوقت ، ثم تراه يتلكأ فى سيره حتى اذا لم يبق على موعده الا وقت قصير هرول ، فيصل فى موعده تماما . فاذا سألته قال انه كان لديه وقت طويل . اما التحليل فيدل على انه اراد أن يقنع نفسه أنه يستطيع أن يصل فى موعده متى شاء ومهما تكن العوائق . وكذلك قد ترى رجلا يسير فى طريقه ، يتخطى كل عقبة ، وبوسعه أن يتفاداها . فاذا سألته لم يحر جوابا ، أو لعله لم يخطر بباله أنه يفعل ذلك حقا . على حين ان التحليل يدل على أنه يرضى نفسه باظهار قدرته على التغلب على كل العوائق . ومن الناس من لا يضع قدمه على الفاصل الذى يقع بين حجرين فى افريز الشارع . وسبب ذلك أعمق مما يظن . فقد يدل على أنه تخطى حدود العرف ، وأبى ان يستمع الى نصح الناصحين ثم خاب أمله فى ما كان يرجوه . وتكون هذه العادة الغريبة « كناية نفســـية » ــ ان صح هذا التعبير ــ عن انه لن يعود الى مثل هذا العمل .

وعندى أن نظرية الأمانى المعوقة تفسر كثيرا من خصائص شعر المتنبى . ولنأخذ لذلك مثلا حرصه الشـــديد على ماله . ولســـنا فى حاجة الى اثبات هذا الحرص . ولم يظهر ذلك فى شـــعره عندما كان فى حلب ، فان سيف الدولة أغناه عن ذلك بعطاياه . ومع ذلك نراه يقول : « لا مجد فى الدنيا لمن قل ماله » . فلمــا قدم مصر ظهر حرصه على الثراء واضحا ، ونراه يقول لكافور :

أَبا المسك هلْ فى الكأْسِ فضلٌ أناله
فإنى أُغنى منذ حين وتشربُ

إذا لم تَنُط بى ضيعةً أو ولايةً
فجودُك يكسونى وشُغلك يسلب

فى هذا البيت نرى المتنبى يعود الى حلمه القديم وهو ان يكون شعره وسيلة الى ضياع تدر عليــه المال . ولعله نسى ان كافور لا يشبه سيف الدولة ، وانه لا يطرب لشـعره كما كان يطرب امير حلب . ولما خرج من مصر قال :

جودُ الرجال من الأَيدى ، وجودُهم
من اللِّسانِ ، فلا كانوا ولا الجود

والمعجبون بالمتنبى لا يفوتهم أن هذا البيت ليس مدحا للكـرم ولا للكريم ، وانما هو استجداء محض .

ولنتحدث عن المجد الذى سعى اليــه المتنبى ، وهو حـديث طويل . ولا ادرى على وجه التحديد ما كان يعنيه الشـعراء حين يتحدثون عن المجد والعــلا ، ولم افهم بالضبط ما جاء فى لاميـة الطغرائى وهى القصـيدة التى نالت من الشـهرة اكثر كثيرا مما تستحق ـ حيث يقول :

إن العُلا حدثتنى وهى صادقةٌ
فيما تحدث أَن العزَّ فى النقل

لو كان فى شَرفِ المأْوى بلوغُ مُنىً
لم تبرحْ الشمسُ يومًا دارةَ الحمل

ويقول المتنبي :

فسرتُ إليك في طلب المعالي وسار سواي في طَلَب المعاش

كان المتنبي يريد مجـدا كالذي يتمتع به الملوك والامراء . ولو أراد بلوغ المجد الادبي وحده لاغناه ما حازه من شـهرة بين الادباء والشعراء . ولكنه كان طموحا الى مجـد من نوع آخر ، وقد اشرنا من قبل الى بيته المعروف :

فلامَجدَ في الدُّنيَا لمن قلَّ مالُه ولامَالَ في الدُّنيا لمن قلَّ مجدُه

الشطر الثاني يوحي الينا أن من اغراض سعيه الى المجـد أن يكون ذا ثراء واسع فتتحقق بذلك كلتا أمنيتيه .

ولما اتصل بسيف الدولة العـربي القح ظن انه سيجد عنـــده ضالتيه . واعجب الأمير بشعره ، واعجبه أن يكون في بلاطه شــاعر قد يشيد بذكره ، وغفر له أخطاءه وقربه منه ، ورفعه فوق رجال الدولة من القواد والابطال . فلما طال بهما العهد اخذ المتنبي يفخر بشجاعته واقدامه ، كأنما كانت له يد في المعارك الذي انتصر فيهـا سيف الدولة . والأمراء لا يعجبهم أن يشاركهم في الفخـر بالنصر غيرهم . ولما أسرف المتنبي في ذلك فتر ما بينـــه وبين الأمير . ثم اخلقت جدة هذا الشعر ، وضعف سحره على الأمير فأحس المتنبي أن منزلته لم تعد كما كانت . وأراد أن يسترد مكانته عنـد الأمير ، واخطأ سبيله الى قلب سيف الدولة ، وعمد الى غروره القـديم ، معتمدا في ذلك على تفوقه في الشـــعر ، فزاد فتور الأمير نحوه من جراء ذلك الغـــرور . وارد أن يستميله بالطعن في غيره من رجال الدولة ، فزاد ذلك من حنق بطانة الأمير عليه ، ولم ينصره ســيف الدولة على اعدائه وحساده . فاستجدى عطف الأمير ، معللا ذلك باحسان هذا اليه ، والاحسان قيـد مرغوب فيه اذا كان من قبل

امير كسيف الدولة . ولم يجده كل هذا شيئا وظل الأمير يظهـــر عـــدم الرضى عنـــه .

مرت العلاقة بين سيف الدولة والمتنبى بأطوار مختلفة نستطيع ان نتتبعها ــ نفسيا لا زمنيا ــ فى قصائده . بدأ بمدحه مدحا خالصا كما جـــاء فى قوله :

بغيرك راعيًا عَبثَ الذئـــابُ وغيرك صارما ثلمَ الضراب

ثم فخر المتنبى بنفسه حيث يقول :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فلما أحس بأن ذلك لا يرضى الامير خفف من غلوائه ولكنه ظل واثقا بعطفه فيقول :

إذا شاء أن يلهُو بلحيةِ أحمقٍ أراه غبارى ، ثم قال له الحق

ثم رأى بعد ذلك ان يقصر فخره على الشعر وحده حيث يقول :

وما الدّهر إلا من رواة قصـــائدى
إذا قلتُ شعرًا كان لى الدهرُ منشدا

ويقول من قصائده :

أنام ملءَ جفونى عن شواردِها
ويسهرُ الخلق جرّاها ويختصم

ويقول :

أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أدبى
وأسمعتْ كلماتى من به صمَمُ

ولما رأى أن سيف الدولة لم يعطف عليه كل العطف زاد غضبه على هذه الحال فقال :

فإن عَتْبك محمودٌ عواقبُــــه
وربما صحّت الأجسامُ بالعلل

فلما يئس من عطف الأمير عليه قال :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائل لى
المجدُ للسيفِ ليس المجدُ للقلم

وبلغ غاية اليأس حيث يقول :

المجدُ أخسرُ والمكارمُ صفقــــةً
من أن يعيش لهـــا الكريمُ الأروعُ

وبرح به اليأس حتى كره الناس جميعا وقال بيته العجيب :

ومن عرفَ الأيامَ معرفتى بها
من النَّاس روّى رمحه غيرّ راحم

ولنذكر هنا أنه اعتذر عن صحبة سيف الدولة فى احدى معاركه بما ذكره من حاجته الى أن يعود الى عياله وذلك حيث يقول :

إن الذى خلفتُ خلفى ضائعٌ   مالى على قلقى إليه خيارُ

وإذا صحبت فكلُّ ماءٍ مشربٌ   لولا العيال ، وكل أرض دار

إذن الأمير بأن أعود إليهم   صلةٌ تسير بشكرها الأشعار

فهل اراد سيف الدولة ان يمتحنه بدعوته الى مصاحبته فى هذه المعارك فلم يجد عنده من الشجاعة والاقدام ما كان يتغنى به فى اشعاره . ولنذكر أن مثل هذا الحادث جرى له مع بدر بن عمار . والمتنبى فى هاتين الحادثتين اظهر انه ليس من اهل الخيل والبيداء والسيف والرمح . ولم يكن ذلك مما يزيد فى اعجاب الأمراء به .

ولعله كان يصف نفسه حين قال :

غيْرِى بأكثر هذا النّاس ينخدع

إن قاتلوا جَبُنوا أوحدّثوا شجعوا

وعلينا ان نفسر الدوافع العميقة التى حملته على وصف المعارك الحربية وصفا فيه شناعة غير معهودة . فنراه يقول :

يطمّع الطير فيهم طول أكلِهمُ

حتى تكادَ على أحيائهم تقعُ

ويصعب على الانسان أن يتصور شاعرا مرهف الحس تخطر بباله صورة فيها ما فى هذا البيت من فظاعة تشمئز منها النفس ، وهو القائل :

إذا سلك السماوةَ غير هادٍ   فقتلاهُمْ لعينيه منارُ

وهو القـائل :

فأرهقت العذارى مردفات   وأوطئت الأصيبحة الصغار

ومن العجيب أن يقول المتنبى بيتا فيه من ضعف النظم ما فى قوله :

للسبى ما نكحوا والقتل ماولدوا

والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

فما سر هذه المبالغات فى وصف القتلى . ظاهر هذا الأمر انه يصف ما رآه فى هذه المعارك . وعندى انه كان فى غنى عن هذه الصور المزعجة . الا يمكن أن يكون ذلك نوعا من الأمانى المعوقة كأنه كان يتمنى أن يكون هو الذى فتك بهؤلاء القتلى . ومن هنا يكون حنقه على القتلى ذلك الحنق الشديد . ثم الا يمكن أن يكون خطر بباله أنه لو كان له فضل فى قتلهم لنال بهذا الاقدام مجدا كالذى بلغه الفرسان بأقدامهم وشجاعتهم .

قد نلتمس للمتنبى بعض العذر فى ما صوره لنا من حال القتلى تأكلهم الطير ، ومن حال الصبية الصغار تدوسهم الخيل ، فهذا كله كان سنة العصور القديمة ـ بل هى مالوفة حتى فى العصور الحديثة التى تدعى الإنسانية والحضارة ـ وكان المنتصرون يفتنون فى القسوة على المهزومين يفعلون بهم ما يشاءون . هذا النوع من هستيريا الحرب يبيح للناس الوانا من التعذيب لا يطيقها الا أقسى الناس قلبا . وكنت أربأ بالشعراء ان ينزلقوا الى ما يقع فيه عامة الناس الذين يستعذبون التمثيل بقتلى اعدائهم .

ولكنى أود أن اقف قليلا عند بيت السماوة . ولى رأى فيه لا اعتقد أنه بعيد كل البعد عن الصواب . ذلك انى اريد أن أستعير من علماء التحليل النفسى بعض مذهبهم فى تفسير الأحلام . وعندى أن بعض قول المتنبى فى المجد ووصفه للحرب كان نوعا من احلام

اليقظة ، وهى أكثر انتشارا وأقل خطرا وأرضى للنفس من الأمانى الموقة . والبيت فى جملته يشير الى أن من يسلك السماوة وهو ضال يجد قتلى الأعداء منارا لعينيه يهتدى به فى هذا المسلك الصعب ، فاذا قدرنا أن سلوك السماوة انما هو كناية عن رحلة الحياة وأنها كانت صعبة عليه ، فهو يحلم أنه لو اهتدى فى رحلته هذه بالتفرغ لقتل الأعداء فى حروب ضارية لكان ذلك هاديا ينير له طريق النجاح فى ما كان يرجوه من مجد . واذا ظن القارىء أن هذا اسراف فليذكر أن التحليل النفسى قد يرى فى حلم واحد مفتاح شخصية المريض ، وأن ذلك قد يكون أول الطريق لعلاجه من الحالات النفسية الغامضة المستعصية .

ولنا أن نتساءل لماذا كثر التعقيد فى مطالع قصائد المتنبى ، وكيف رضى أن يقول :

كيفَ ترثى التى ترى كلَّ جَفْنٍ　　　راءها غير جفنها غير راقِ

والشطر الثانى سىء التركيب ، سىء النظم ، ولم يكن به حاجة الى الاحتفاظ به . وكيف رضى ان يقول :

وفاؤُكما كالربع أشجاهُ طاسمهْ

بأنْ تسعدا ، والدمعِ أشفاه ساجمه[1]

ولو سألنا المتنبى عن الدافع له على مثل هذا القول لقال انه أراد أن يتعب سامعيه وأن يحملهم على البحث فى معناه . أليس هو القائل عن قصائده :

---

(١) اراد المتنبى ان يقول وفاؤكم لى حين تعاهدتم ان تسعدونى اندثر كما يندثر الربع ، وان ذلك زاد فى حزنه كما تزيد الاطلال فى شجون المحب وكما يشفى الدمع المحب حين يبكى على من فقدهم . والمعنى كما يرى القارىء معقد وفيه التواء لا يتفق مع المعنى الهزيل الذى اراده .

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وقد نرى ذلك عند غيره من الادباء حيث يجيء التعقيد عرضا ، اما المتنبى فالتعقيد فى شعره اعمق من ان يكون قد جاء عرضا .

وخلاصة القول ان التعقيد فى شـــعر المتنبى جاء أقله من اثر حرصه ، اما أكثره فمرجعه الى اخفاقه فى بلوغ المجد الذى اراده ، فكانت هذه الامانى المعوقة هى السبب العميق فى ما جاء فى شـــعره من تعقيد وأغراب .

المتنبى فى مصر

لم يفت المتنبى حين هجر سيف الدولة أنه يفارق أحب الناس له وأحبهم اليه ، وله فى هذا قول مفعم بالحزن والأسى والندم :

عشيةَ أحْفَى الناسِ بي من جفوتُه
وأهدى الطريقين التى أتجنب

ولم يفته أن كافورا لن يحيطه بما كان يلقاه عند سيف الدولة من تقدير واعجاب ، ومع ذلك فان شعره فى مصر كان من خير شعره كله ، ظهرت فيه خصائص لم نعهدها فى أجود شعره قبل ذلك ؛ نراه يطرب حين يرى النساء الجميلات خارجات من الحمام مائلة أعطافهن صقيلات العراقيب ، وكان من قبل لا يراهن الا بعينى شعراء الاحتراف ، وفى غزلهم برود . حتى حين يكون فيه حسن صنعة والتصنيع . ونراه يندم على ما فرط فى حق نفسه حين فضل معانقة السيوف على معانقة الغيد .

ولم نعهد فى قصائد المتنبى السابقة أنه طرب لمجالس اللهو والقيان ، ولا نريد أن نشهد عليه بشرب الخمر ، ولكنه يتساءل

لماذا لا تطربه الخمر ، وهل فى كئوسها هم وتسهيد ، كل هذا جديد على المتنبى الذى ظل طول حياته يعمل للعلا والمجد عملا كله جد .

وفى مصر عرف المتنبى لونا من الشعر جديدا عليه ، وهو التهكم والاستهزاء حتى بكافور نفسه ، وان كان قد اصطنع الاخلاص ، والاعجاب به تحت ثوب من الرياء لا اظنه خفى على هذا الامير . ولعله لم يخلص فى الاعجاب بكافور الا حين وصفه بالمهارة السياسية .

وطعن فى المصريين طعنا مرا فى عدة مواضع ، وندد بريائهم حين يقولون لكافور انه بدر الدجى . وعجب كيف ترضى امة عزيزة أن يتولى امرها كل من قتل سيده غيلة . وعاب عليهم جهلهم بالاسلام حتى حسبوا ان غاية الدين ان يحفوا شواربهم ثم قال قصيدته المعروفة التى وصف فيها ما يحدث فى مصر انه يضحك ولكنه ضحك كالبكى . فى كل هذا تحليل دقيق ووصف صادق للمجتمع المصرى حينذاك . ويدل على ذكاء نافذ ، يختلف تمام الاختلاف عن أقواله فى الحكم التى يزخر بها الديوان .

وسنضرب الأمثلة على ما قدمناه من تحليل لهذا الشعر ، والنظر فى قصيدته الشهيرة :

من الجآذر فى زى الأعاريبِ
حُمر الحُلى والمطايَا والجلابيب

إن كنتَ تسأل شكًّا فى معارفَها
فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

ويقول فيهـا :

أزورهمْ وسوادُ الليل يشفع لى
وأنثنى وبياضُ الصُّبح يغرى بى .

هذه القصيدة من أجمل ما فى الشعر العربى ، بلغ فيها المتنبى الذروة ، ولا ينكر ذلك أحـد ممن دربوا على تذوق هذا النـوع من الشعر ، والذين لهم أقل المام بجمال الشـعر العربى يطربون لهذه الأبيات الرائعة . مع أن ما قيل فيها مألوف عنـد كثيرين غيره ، وامتيازها كله فى صياغتها الجميلة . ولكن ماذا فيها من واقع خبرته فى مصر ؟ ليس فيها وصف لما رآه فعلا عند المصريات . فقوله أنهن سبب ما يلقاه من هم وتعذيب قول سبقه اليه أكثر الشـعراء . أما قوله أنه يزورهن والليل يشفع له ، ويتركهن والصبح يغـرى به الرقباء فقول بدوى كالذى رأيناه فى شعر امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ولا أظن أن المتنبى كانت له مغامرات من هذا النـوع ويقـول :

ما أوجُه الحضر المستحسناتِ به
كأوجُهِ البدويات الرعـابيبِ
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية
وفى البداوةِ حسن غير مجلوبِ

والبيت الأخير من أدق ما قيل فى التفريق بين الجمال البدوى والجمال الحضرى ، وليس عجيبا أن يفضل المتنبى البدويات على نساء الحضر . وهو يعيب على هؤلاء أنهن يمضغن كلامهن ويصبغن حواجبهن ، ويخرجن من الحمام مائلة أعطافهن .

ولا برزنَ من الحمـــام مائلةً

أعطافُهن صفيـــلاتٌ العراقيب

وفيه دليل على انه رأى النساء الجميلات فى مصر وأدهشـــه ما ظهر من جمالهن . ولا تزال القرويات فى مصر يحرصن على صقل عراقيبهن حتى تبدو ناعمة وردية اللون . وطرب المتنبى لذلك الى حد ما ، واعجبه أن يراهن مائلات الاعطاف يخطرن فى رشـــاقة اعجبته ، ولكنه أسرع يفضل عليهن البدويات .

ونراه يذكر كذلك جمال المصريات فى قصيدته المشـــهورة التى اولهـــا :

عيدٌ بأية حـــال عدتَ ياعيدُ

بما مضَى أم لأمر فيك تجديد

ولاول مرة نجد المتنبى يندم الى حد ما على تفضيله المجد والعلا على بهجة السرور بمعانقة الغيد الأماليد . واعجابه بالغادة الأملود يدل على انه تأثر بجمال الحضريات ولين أجسامهن دون عبـــالة مسرفة كالتى كان يعجب بها أكثر شعراء البادية .

ونراه يقول فى هذه القصيدة :

لم يتركْ الدهرُ من قلبى ولا كَبِدى

شيئًا تُتَيمه عينٌ ولا جيـــد

أساقِيَّ أخمرٌ فى كئوسكـــمَا

أم فى كُئوسكما همٌ وتسهيـــدُ

أصخرةٌ أنا مالى لا تحـــركنى

هذى المدامُ ولا هذى الأغاريد

واحسب أن بعض أصدقائه حملوه على أن يغشى مجالس اللهو والعبث والغناء واحسب أنه طرب لهذا طربا معتدلا مشوبا بالنـدم على ما فاته ، وأسف على أنه لم يعـد قادرا على أن يطرب لهـذا السرور الطرب كله .

هذه الأبيات تدل على أن تغيرا تاما حدث فى احساس المتنبى بجمال النسـاء ومجالس اللهو ، ولكن كان ذلك بقدر ، لأنه لم يجـد فى حياته الماضية وآماله الضائعـة ما يسمح له بالسرور الكامل الخالص بهذه اللذات ، وظل منها بعيدا رغم قربه منها . ولم يشارك أهلها الا مشاركة محدودة بما كان فيه من وقار وجد .

ومن خصائص شعره فى مصر ما كان من تهكم وهى صفة لا نراها فى شعر المتنبى فى غير هذا العهد . والتهكم فى شعر المتنبى له تطور واضح فقد بدأه خائفا وجلا يحاذر أن يدرك كافور أن مديحه له لا يخلو من اسـتهزاء خفى ثم رأى أنه ليس أمام سيف الدولة الأديب اللبق الخبير بمواقع الكلام فتهكم صراحة ، ولا أشك أنه كان يضحك ملء شدقيه حين يخلو الى نفسـه فيذكر كيف خفى على سامعيه ما فى مديحه لكافور من سخرية ، ثم أصبح تهكمـه جدا ؟ يكاد يكون أقرب الى الذم ، ثم اشتدت مرارة نفسـه وحنقـه ؟ وأصبح التهكم مريرا مؤلما وذلك قبل أن يندفع المتنبى فى هجو كافور الهجو الذى نعرفه .

ولم يمدح المتنبى كافورا مدحا خاليا من التهكم الا حين وصفه بحسن السياسة فى مثل قوله :

إذا مَنعتْ منك السياسةُ نفسها

فقِفْ وقفةً قُدامه تتعلـــــم

وفى قوله :

وإرادته أنفس حال تدبيرك ما بينها وبين المراد

أما مدحه لكافور فى غير السياسة فلا يخلو من التهــــكم على صورة من الصور التى ذكرناها .

فمن التهكم الخفى كل ما جاء فى تفضيل السـواد على البياض مثل قوله :

فجاءت بنا إنسان عينِ زمانِه
وخلَّتْ بياضًا حولها ومآقيــا

وقوله :

إن فى ثوبكَ الذى المجد فيه
لضياءً يفوق كل ضيـــــاء
إنما الجلد ملبسٌ وابيضاضُ النـ
ـفس خيرٌ من ابيضاض القباء

ومن التهكم الصريح ذكره الشمس السوداء ــ وهذه لا تكون إلا تهكما فى قوله :

تَفْضَحُ الشمس كلما ذَرَّتْ الشمـ
ـسُ بشمسٍ منيرة ســـــوداء

ومنه ذكر قلوب النساء فى معرض مدح كافور فى قوله :

إنما يَفْخَرُ الكريمُ أبو المسـ لكَ بما يبتنى من العلياء

وبما أثرتْ صوارمهُ البيـ ضُ فى جماجم الأعداء
لا بما تبتنى الحواضرُ فى الريفِ وما يطّبى قلوبَ النساء

ومن التهكم الجدى ما هو اشبه بالذم مثل قوله :

ولله سرٌ فى علاكَ وإنمـا كلامُ العدا ضربٌ من الهذيانِ

وقوله :

مُجرباً فَهِماً من قبل تجربة مهذّباً كرماً من غير تهذيب

اما التهكم المملوء مرارة وحنقا فظاهر فى قوله :

أبا المسك ذا الوجهِ الذى كنتُ تائقاً
إليه ، وذا الوقت الذى كنت راجيا

ولا تجد فى شعر المتنبى تهكما الا فى هذا العهد من حياته ، وهو نوع من القول نادر فى الشعر العـربى على اية حال . وبعض هـذا التهكم فيه فكاهة بقدر ما يستطيع المتنبى من مرح ، والغلبه فيه من المرارة والجد ما هو اشبه بطبع ابى الطيب .

ولا اريد الاطـالة فى ما قال المتنبى فى مصر والمصريين ، واكثرنا يحفظ ذلك القول ويعجب به . وليس صحيحا ما يقال لقنا لم نغفر له ما قال فى المصريين . والأمر على عكس ذلك تماما ، فهذا الشعر فيه تحليل دقيق لحال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العهد .

واليك قليلا مما قيل فينا :

أكلّما اغتالَ عبدُ السُّوء سيّدَه
وخانَه ، فلهُ فى مصرَ تمجيدُ؟

نامتْ نواطيرُ مصر عن ثعالبها
فقد بَشِمْنَ وَما تَفْنَى العناقيد

صار الخصى إمام الآبقين بها
فالحرُ مستعبدٌ والعبدُ معبود

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمةً ضحكت من جهلها الأُمم

سادات كلِّ إناس من نفوسهم
وسادة المسلمين الأعبد القزم

وأسود مِشْفَره نصفه
يقال له أنت بدرُ الدجى

ونراه يحرض المصريين على الثورة على هذا الأسود القزم فيقول:

وقد ضلَّ قومٌ بأصنامهم
وأما بزق رياح فلا

ألا فتى يورد الهندى هامته
كيما تزول شكوكُ الناس والتهم

هذا شعر جيد ممتاز ، ولم نعهده عند الكثيرين من الشعراء السابقين . ولم يكن قوله هذا مقصورا على المديح البحت او الهجو اللاذع ، وانما كان فيه تحليل جيد لمجتمع اسلامي لا يتفق مع عزة المسلمين الذين كانوا تحت امرة سيف الدولة، وغضب على المسلمين غضبا شديدا مخلصا . وأبت عليه عربيته أن يذل المسلمون لمثل كافور ، ولو أدى ذلك الى مجد الدولة وعلو شأنها ورخائها .

الحكمة فى شعر المتنبى

شهر المتنبى بكثرة ما جاء فى شعره من الحكم والأقوال المأثورة التى سارت فى الناس مجرى الامثال . ولا اعرف شاعرا آخر يستشهد الناس بشعره حين يحزبهم امر كما يستشهدون بشعر المتنبى . وله قدرة عجيبة على تحويل خبرته الشخصية الى خبرة انسانية عامة . ولا غبار على ذلك ، بل قد تكون غاية الأدب ، بل غاية الفنون كلها أن يستخلص رجل الفن عبرا شاملة من خبرة شخصية فردية صادقة .

الحكمة والأمثال معروفة عند جميع الأمم ، وكثيرا ما تدل على اعماق نفوس الجماعات ، وهى تكثر بصفة خاصة فى الأمم القديمة . واكثرها يقوم على قوة فى تركيز مشاعر النـاس واحساساتهم ، حتى تتبلور فى صيغ قصيرة لتؤثر فى السامعين تأثيرا قويا حتى يحسبوها من الحقائق المقررة أو القوانين الاجتماعية الثابتة .

ثم يتقدم الزمن بالأدب والفنون ويخرج رجالها من طور التركيز والبلورة الى عهد التحليل لهذه الاحساسات والمشاعر

التى تعتريهم فى المواقف المختلفة ، وهذه سمة الأدب فى العصر الحديث . فأكثره تحليلى وان تعددت المذاهب واختلفت الأساليب .

كان العرب يفخرون منذ القدم بما فى كلامهم من حكمة وأمثال، وظنوا أنهم تفوقوا على كل الأمم بهذه القدرة ، ولعلهم حسبوا أن ذلك ارفع انواع الأدب .

وساقف قليلا عند قصة وفود العرب على كسرى كما رواها صاحب العقد الفريد . والظاهر ان احدا من رجال كسرى نال من العرب وغض من قدرهم ، وعاب عليهم انهم ليسوا أهل حضارة او ثقافة . وأراد النعمان ان يبعث الى كسرى رجالا من العرب فيهم حكمة وثقافة . وكان على رأسهم حكيم العرب أكثم بن صيفى . فلما مثلت الوفود أمام كسرى تكلم أكثم فقال : افضل الخطباء أصدقهم . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة . وسوء الظن عصمة . اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعى . شر الملوك من خافه البرىء . خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . البلاغة الايجاز .

ورد عليه كسرى فقال : ويحك يا أكثم ! ما احكمك واوثق كلامك لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ! قال أكثم : الصدق ينبى عنك لا الوعيد ، قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، قال اكثم : رب قول انفذ من صول .

كانت مقالة اكثم حكما متناثرة لا يربط بينها شىء . ومع اننا لا نستطيع ان نثق ان ما جاء فى كتب الادب هو ما قاله أكثم نصا فان لنا أن نفرض أنه كان يعرض على كسرى أرقى أنواع الثقافة العربية حينذاك ممثلة فى حكمها وامثالها . وكنت اشك كثيرا فى

هذه المقالات ظنا منى أنها من اختراع الأدباء المتأخرين . على أن هناك عبارة وردت في قصة هذه الوفود تدل على ان شيئا من ذلك وقع فعلا حيث قال كسرى « ويحك يا أكثم .. » ! هـــذه الملاحظة صحيحة ولا اظن أن أديبا يخترع قصة الوفود هذه لم يغض من قدر الحكمة العربية بمثل هذه الملاحظة الدقيقة الواردة على لسان كسرى .

وروى العقد الفريد قصة عجيبة عن حاجب ابن زرارة حين وفد على كسرى ، فأرسل كسرى من يسأله هل هو سيد العرب فقال لا . فلما اذن له بالدخول اليه سأله من أنت قال حاجب : انا سيد العرب . فقال كسرى ألم تقل انك لست سيدا ؟ قال حاجب: « لم أكن كذلك حتى دخلت عليك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب » . قال كسرى أملئوا فاه درا . هذا مثل آخر على تقدير العرب للكلمة الزكية والقول الجميل . ولا احسب أن كسرى كان يتقن اللغة العربية اتقانا يسمح له بتذوق جمال هـــذه الحـكم ، ولا أظن أنه قدر دقة تعبيرها عن خبرة قائليها ، ولا أخال ثقافته حملته على الاعجاب بمثل هـــذه الكلمة الزكيـــة التى كان العرب يعدونها غاية البلاغة ، ولعل أميرا عربيا من خاصة بطانته شرح له غوامض تلك العبارات المركزة . ولا احسب أن كسرى أعجب بما فعله حاجب بن زرارة ، فهذا شيء يطرب له العربى لما فى فعلته هذه من دليل على الذكاء ، ولا أظن أن كسرى أعجب به الى حد الأمر بأن يملئوا فاه درا ولو كان ذلك من قبيل المجاز .

كان العرب يفخرون بكثرة الحكمة والأمثال فى كلامهم ، ولعله كان جماع نثرهم لقصر عباراتها وسهولة حفظها فى عهد كان التدوين فيه قليلا ، وشهرة الحكم فى هذا تشبه الى حد كبير شهرة الشعر فى ذلك العصر . ولم يتح للعرب التحليل المطول لأهداف الحيـــاة لحاجة هذا النوع من النثر الى التدوين . وليس عجيبا أن تكون

الحكم دروسا وعبرا وتحذيرا للناس من أن يقعوا فى محظورات وقع فيها من قبلهم . والناس حين يتحدثون عن الخبرة يعنون فى أغلب الحالات اخفاقهم فى الأمور التى يحذرون الناس منها . وقليل من الحكم ما يكون الحديث فيه عن خبرة ناجحة . هذا امر معروف فى جميع الأمثال قديمها وحديثها عند العرب وعند غير العرب ، ولكنها فى العربى أكثر ، وأمهات كتب الأدب العربية محشوة بحكم كثيرة جدا ، ينسبون بعضها الى الهند أو فارس أو اليونان ، وكثيرا ما كانوا يروون عن فلاسفة الاغريق وحكماء غيرهم من البلاد أقوالا لا يمكن أن تكون نسبتها الى أصحابها صحيحة . وكثير من الحكم مسجوع سجعا مصنعا ، تتوالى فيه العبارات متشابهة منمقة . ونسبوا الكثير من الحكم الى على بن أبى طالب ، لا يريدون بذلك أن يكذبوا عليه ولكنهم كانوا يرون أن الحكمة الرائعة خليقة أن يقولها رجل فى الذروة من الحكمة والبلاغة . وتكون نسبتها اليه صحيحة لروعتها وان لم يكن قالها فعلا .

على أن الأقوال الحكيمة والأمثال الرائعة لم تكن كلها على وتيرة واحدة من حيث دلالتها على خبرة قائلها وسنقصر بحثنا على الحكمة فى أشعار المتنبى ، ولكن لا بد لنا أن نقارنها بالحكمة عند غيره لنتبين صفاتها الخاصة .

ولنبدأ بالحكمة عند زهير بن أبى سلمى ، وكلنا نحفظها ونعجب بها ، من ذلك قوله :

ومن يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِه
على قومِه يستغنَ عنه ويذمم

هذا البيت يعبر عن خبرة لزهير تبينها فى غيره من أفاضل الناس . ولا يمكن أن يكون قد أراد بذلك نفسه . فهى موضوعية خالصة . وكذلك قوله :

ومن لم يصانعْ فى أمورٍ كثيرة

يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بِمِنْسَمِ

هذه ايضا حكمة خالصة ، وليس من المعقول أن يكون زهير اراد ان يصف نفسه بالمصانعة ، وهى غالبا تصدر عن جبن واحجام . ولكنه راى غيره يقدم فى غير موضع الاقدام فيصيبه من تلك الكبرياء شر كثير ، وكذلك قوله :

ومهمَا تكنْ عند امرىء من خليقة

وإن خَالها تَخفَى على النَّاس تُعْلَمِ

هذه حكمة رائعة خالصة ، تدل على عمق فى تحليل نفوس الذين يظنون أنهم يستطيعون خداع الناس باخفاء نقائصهم ، فلا يكون نصيبهم من ذلك الا اظهارها بصورة أوضح ، وليس من المعقول أن يكون زهير فكر فى نفسه حين قال ذلك البيت العظيم .

ومن الحكم التى تدل على صدق الملاحظة ودقة الحس دون أن تكون فى ذلك اشارة من قريب أو بعيد الى الشاعر نفسه قول ابى نواس :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفتْ

لَهُ عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

وسنبين فيما بعد الفرق بين الموضوعية فى بيت ابى نواس وبين الحنق والغضب على الناس فى بيت المتنبى حيث يقول :

ومن عرفَ الأيَّامَ معرفَتِى بِها

من النَّاسِ رَوَّى رُمْحهُ غيرَ راحمِ

لم يستطع المتنبى فى اى عهد من عهود حياته ان ينسى نفسه ، وهى أبدا محور تفكيره ، وهذا النوع من الشخصيات معروف جدا عند علماء النفس . بهذا لا يكون من الصعب أن نتبين فى حكمة الحالات النفسية التى مر بها . وليست الحكمة كثيرة فى شعر المتنبى حين كان عالى الآمال ، يسعى الى المال والمجد . ولم يكن قد أخفق فى بلوغ هذه الامال اخفاقا يملى عليه الخبرة التى ظهرت فى شعره فى ما بعد .

فى عهده الأول نراه يقول :

فسرتُ إليك فى طلب المعالى

وسار سواى فى طلب المعاش

وهو الذى يقول :

تريدين لقيان المعالى رخيصةً

ولا بدَّ دون الشُّهد من إبَر النحل

وليس عجيبا أن تكون حكمته فى ذلك العهد حكمة خالصة فهو يقول مثلا :

وخَيرُ مكانٍ فى الدُّنى سرجُ سابحٍ

وخَير جليسٍ فى الزّمان كتاب

ونراه يقولَ :

كل ما كان من الصعب فى الأنفس

سهلٌ فيها إذا هو كـــان

ونحن نرى فى هذا القول حكمة بسيطة سهلة مؤملة خيرا فى الدنيا وفى الناس . فلما تعسر فى بلوغ آماله نسب ذلك الى الزمن والناس اذ هم حرب على الافاضل ، ولا ينجو من مكائدهم الا من قلت فطنته . وهو عذر يلتمسه كل انسان حين يرى آماله تفلت من قبضة يده وهو يقول فى ذلك :

أفاضِلُ الناس أغراضٌ لذا الزّمن

يخلُو من الهمّ أخلاهُمْ من الفِطنِ

فلما بعد ما بينه وبين آماله قال فى ذلك :

لولا المشقةُ سادَ الناس كلُّهم

الجودُ يُفقِر والإقدامُ قتّالُ

وسنقف عند هذا البيت قليلا . ذلك ان ظاهره مدح يشيد فيه بجود الممدوح واقدامه على المخاطر ولو كان فيها شبح الموت . ولعل المتنبى اراد كذلك أن يبين للناس ما فى طلب المعالى من خطر، وهى حكمة خالصة موضوعية . على انى أرى انه أراد ايضا ان يعزى نفسه عن حرصه على المال وعن قصوره عن مجابهة الموت بأن كلا الأمرين وهما ضروريان للعلا ، لا يخلو من خطــر التعرض للفقر والموت . فهى بذلك ليست حكمة خالصة وانما هى مرآة لحاله النفسية عن ما تقتضيه العلا من تضحيات . لم فتر ما بينه وبين سيف الدولة ، وحسب المتنبى ان ذلك ليس الا عتــابا ثم تعود المياه الى مجاريها . فقال فى ذلك :

لعلّ عَتبَكَ محمودٌ عواقبُهُ

وربّما صحّتْ الأجسامُ بالعللِ

وزاد فى استرضائه حيث قال :

وقيدتُ نفسي فى ذَراك محبةً

ومن وَجدَ الإحسانَ قَيْدًا تقيّدا

ثم غضب الشاعر لكرامته فالتمس لنفسه عذرا فى البقاء عند سيف الدولة فقال فى ذلك :

شرُّ البلادِ مكانٌ لاصديقَ به

وشرُّ مايكسب الإنسان مايَصِمُ

الى أن قال :

وصرتُ أشكُّ فى من أصْطفيه

لِعِلْمى أنه بعضُ الأنامِ

ولما بلغ غاية الياس قال فى ذلك :

المجدُ أخسر والمكارمُ صفقةً

من أن يعيشَ لها الكريمُ الأروعُ

* * *

لا اريد أن اترك المتنبى دون أن اشير الى أضعف نواحي شعره وهو الوصف . فالرجل لم توهب له القدرة على رؤية الأشياء الجميلة فيطرب لها طربا يحمله على التغني بذلك الجمال . أو لعله شغل عن ذلك كله بخرافة الغنى والمجد . وسترى أنه عندما يحاول أن يصف شيئا جميلا يفعل ذلك على مضض وتكلف واضح وانظر الى وصفه شعب بوان . ولعل هذه القصيدة أضعف ما فى ديوانه .

بدأ القصيدة بقوله :

مغانى الشِّعب طيبًا فى المغانى

بمنزلةِ الربيع من الزمـــان

والقارىء كان يرجو أن يقول الشاعر أن الشعب فى الربيع خير منه فى اى فصل آخر كما يفعل شعراء العالم كلهم صغارهم وكبارهم ، حتى ابتذل ذلك منهم . ثم لا يجد القارىء الا تشبيها غير حسى يقول فيه ان جمال الشعب بين الشعاب كجمال الربيع بين الفصول . وعلى ذلك بيت ليس اكثره قوة من هذا البيت الأول فنراه يقول :

ملاعبُ جِنّةٍ لو سارَ فيهـــا

سليمانٌ لسار بترْجُمـــانِ

قد يكون لهذا البيت قيمة لو كان فى غير هذا الموضع . اما من حيث وصف الشعب فهو من غير شك قصور عن ادراك جماله. وكذلك قوله :

فسرتُ وقد حجبنَ الشّمس عنى

وجئنَ من الضِّياء بما كفانى

وألقى الشرقَ منها فى ثيـــابى

دنانيرًا تَفِرُّ من البنـــان

التكلف فى هذين البيتين ظاهر ، بل لعله يكون مرذولا .

وللمتنبى قصيدة فى مدح سيف الدولة بعد ان نصره الله على الروم فارسلوا اليه رسولا وهو يقول فى ذلك عن رسول الروم :

فأقبلَ يمشي فى البساط فما دَرى

إلى البَحْرِ يسعَى أم إلى البدر يرتقى

ومدح سيف الدولة انه كالبحر والبدر كلام مبتذل لا يليق بوصف منظر رهيب كالذى كان بين رسول ملك مهزوم يتقدم الى ملك منتصر يطلب اليه التسليم والخضوع .

والصور الحسية فى ديوان المتنبى قليلة ومن السهل حصرها . من ذلك قوله يصف خيمة عليها صور حيوان :

ترى حيوانَ البَرِّ مصطلحاً بها

يحاربُ ضد ضده ويسالمه

إذا ضربتْه الريحُ ماجَ كأنه

تجولُ مذاكيه وتدآى ضراغِمُه

والبيت الثانى صورة حسية اذا ضربت الريح الخيمة فكأن الخيل والأسود المصورة تتحرك وهى صورة لا بأس بها

والمتنبى لا يستطيع ان يرى اى جمال فى الوصف البسيط الهادى الجميل مثل قول البحترى :

والمنايا مواثلٌ وأنو شروان

يُزجى الصُّفوف تحت الدرفس

وله أرجوزة يصف فيها الصيد وفيها وصف جيد ولا غرابة في ذلك . فقد قالها بعد ان اكتملت قوته في النظم . فهو يقول :

فقيدت الايل في الحبال ... طوع وهوق الخيل والرجال
تسير سير النعم الارسال ... معتمة بيبس الاجذال
لها لحىً سودٌ بلا سبال ... يصلحن للاضحاك لا الإجلال
لاتؤثر الوجه على القَذال ... فاختلفت في وابلي نبال
من أسفل الطَّود ومن معالِ
فهن يهوينَ من القِلال ... مقلوبَةَ الأظلافِ والأرقال[1]

ومع ذلك نراه يذكر امورا ليست من الوصف الحسي في شيء حيث يقول عن الآيال . يصلحن للاضحاك لا الاجلال .

وعلى ذلك نرى أن المتنبي لم يكن له حظ كبير من التغني بجمال المرئيات ، وربما لا يكون ذلك عيبا في الأدباء والكتاب ولكنه من غير شك نقص في شعرية الشعراء .

---

(١) يقول ان الايائل قيدت في الحبال حتى صارت طوعا للفرسان الصائدين فتسير سيرا لينا كالابل حين تكون قرونها عمامة ثقيلة عليها لكبر سنها وتاتيها النبال من فوقها ومن اسفلها كالمطر فتهوى من اعلى الجبل منحدرة على ظهورها لا على اظلافها .

ابو العلاء المعرى

كان ابو العلاء شاعرا ليس كمثله شـــاعر ، مفكرا ليس كمثله مفكر ، زاهدا ليس كمثله زاهد . وكان مظلوما كما لم يظلم احد من مفكرى العرب ، كان فريدا فى الحضارة العربية كلهــا ، ولم يتبــع طريق شعراء الاحتراف الا فى قصيدة قالها فى شبابه :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل

عفاف وإقــدام وحزم ونائل

هذا القول ابعد الأشياء عن نفسه ، وانما قاله فى شبابه اظهارا لقــدرته على مجـــاراة غيره من المبصرين ، كما كان يلعب النــرد والشطرنج ، ولعله ندم على هذا المقال بعد أن تحددت شخصيته . وكيف كان له أن يفخر بالجود وهو فقير ،وبالمجد وهو زاهد ، فهذا كله من عبث الشباب وليس لنا أن نعيبه عليه .

كان ابو العلاء المعـــرى أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، واعمقهم تفكيرا ، وهو أصدقهم عاطفة واحــدهم ذكاء ، لا نستثنى من ذلك أحدا . فى حيــاته صرامة ، وفى عقيــدته جد . ثم ان فى

احساسه رقة وفى آرائه جراة لا عهد لنا بها فى غيره من كبار الكتاب العرب . فالجاحظ على علو قدره فى الأدب والتفكير ، كان لا يحجم عن الدفاع عن المتناقضات ، ويسوق على ذلك حججا يظنها قوية ، على غير اقتناع ثابت . وكذلك كانت مقامات الحريرى وبديع الزمان وكتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، كل ذلك كان أدب احتراف ، ويصح ان نسميه عقدة الانشاء . ولم يفكر أحد من الكتاب تفكيرا مستقيما الا ابن خلدون .

ويعجبنى من ابى العلاء انه خير مثل لما اسميه الصدق الاكبر ، وهو التوافق التام بين نفسية الانسان وعقليته وحياته . كذلك كانت حياة المعرى ، عاش أدبه حتى أصبحت حياته وادبه شيئا واحدا . وهذا نادر جدا بين أدباء العالم جميعا . والذى نعرفه عن اكبر المفكرين ان حياتهم أوسع من أدبهم . والأدب يظل جزءا من حياة الأديب مهما يكن خطر هذا الجزء . اما أبو العلاء فادبه يملأ حياته كلها حتى لا يكاد يكون فيها شىء غير هذا الأدب . كأنما حياته لما ضاقت ، وأدبه لما اتسع أصبحا متطابقين . وهذا التطابق يؤدى حتما الى الصدق فى التعبير . وغاية الصدق ان يكون الأدب مرآة للحياة . فاذا كان هو حياة الأديب كلها فذلك ارفع مراتب الصدق .

عاب عليه معاصروه خروجه على التفكير المألوف واتهموه بالالحاد . وسأبين فى ما بعد ان ابا العلاء كان بطبيعته متدينا . ولكنه ابى ان يؤمن ايمان العجائز ، وفضل ان يكون ايمانه بعد التفكير فى أمور الكون ، كما يأمرنا بذلك القرآن الكريم . وليس التشكيك مدعاة الى نبذ الايمان . بل قد يكون مقويا له . والواقع أن معاصريه عابوا عليه حرية الفكر مهما يكن موضوع بحثه . قال له احد الناس مرة ماذا ينقمون منك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ، وتألم لذلك أبو العلاء ورد عليه قائلا : والآخرة !

ومن دلائل حرية تفكيره قوله :

جائزٌ أن يكون آدمُ هذا　　قبله آدم على إثر آدم

وسواء اكان هذا الرأى خطـــا ام صوابا فهو دليل على التفكير الحـــر العميق .

وعابوا عليه قوله :

فى الأرض قامت ضَجَّةٌ　　ما بين أحمدَ والمسيح
هـــذا بناقوس يـــدقٌّ　　وذا بمأذنـــة يصيح
كلٌ يحبِّـــذُ دينـــه　　ياليت شعرى ما الصحيح

فى هذا القول يسخر المعرى من اصحاب الاديان لا من الاديان نفسها ويريد منهم ـ ان كانوا صادقين ـ ان يجمعوا على راى واحد صحيح .

وهو فى شك من وجـــود اليقين فى اى امرَ من الأمور وفى ذلكَ يقـــول :

إنما نحنُ فى ضلال وتعليل　　فإن كنت ذا يقين فهاته
والمذهبُ الصحيح آثرت الروم　　انتساب الفتى إلى أمهاته[1]

(1) بحثت عن اصل هذه العبارة فلم اهتد الى شىء يدل عليه ، ســوى ان بعض الامم تذكر من بين اسماء الرجل اسم اسرة امه قبل اسم اسرة ابيه .

وللمعرى بيتان مشهوران :

قال المُنجِّم والطبيبُ كلاهُما   لاتحشر الأجساد قلت إليكما
إن كان قَوْلكما فليس بضائرى   أو كان قولى فالخسارُ عليكما

ومن العجيب أن فيلسوفا فرنسيا متدينــا الى اقصى حد قال ما يشبه ذلك بعد المعرى بخمسة قرون . يقول بسكال راهن على ان الله موجود . فان كان موجودا فذلك الفوز العظـيم ، وان لم يكن موجودا فانك لا تخسر شيئا . وانا أعترف أن هذا أضعف الايمــان ولكنه ليس الحادا .

ولعل معاصريه غضبوا لما فى رسالة الغفران مما يشبه التهــكم عــلى من يؤمنون بنعيم الجنة المادى ، ولم يهزأ بنعيمها الروحى . ومن أمثلة ذلك ما ذكره من ان الله وهب لعلى بن القــارح حورية فى الجنة ، فسجد اعظاما لله القدير ، « ويخطر فى نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية فيرفع راســـه من السجود وقد صار وراءها ردف يضاهى كثبان عالج . فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ، ويقول يا رازق المشرقة ســناها ، أسألك ان تقصر عرض هذه الحورية على ميل فى ميل » . ولما اراد احدهم أن يتزوج حورية ظهرت له على شــكل أوزة منع من ذلك حتى لا يقال عن بعض أهل الجنة أنهم ازواج الأوز . هذا النوع من التهكم لا يعد شيئا بجانب ما رواه من يدعون العلم بالغيب ، نقلا عن ابن عباس نفســه ، من وصف عجيب للنعيم المادى الذى سيتمتع به المؤمنون فى الجنة ، مثل هذا القول فى رسالة الغفران اغضب معاصريه ولا يغضبنا نحن المحدثين ، سواء رأيناه خطأ أم صوابا ، من حيث أن فيـــه بديلا واضحا على حرية التفكير .

وكان صادقا فى زهــده ، أليس هو الذى سمى نفسه رهين المحبسين فى غير غضاضة او الم أو حقد . وصف له الاطباء بعد ان

ابل من مرض طويل أن يأكل فرخا صغيرا ، فلما لمسه اجفل منه وقال « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد » .

كل هذا مشهور معروف ، تحدث عنه عدد من أكبر نقاد الأدب فى العصر الحاضر وبينوا لنا ما يحببه الينا من حيث صدقه واخلاصه .

* * *

وسأتناول بالبحث أسلوبه الخاص فى النثر والشعر وخاصة فى اللزوميات محاولا أن أعلل ذلك بظروف حياته ونفسيته الخاصة . وأكثر الناس يظنون ان أسلوب المعرى كان سنة البلاغيين فى عصره ، وانه جرى على ما جرى عليه شعراء عصره وأدباؤه . هذا قول صحيح ولكنه ليس الحق كله . فالمعرى لم يتبع معاصريه فى شىء ، ونحن نتساءل لم حذا حذوهم فى هذا الاسلوب . الواقع أن لهذا الاسلوب عند المعرى اسبابا نفسية عميقة .

ولنبدأ بالنثر فى كتاب الفصول والغايات . وانا من الذين يكرهون المحسنات البديعية الى حد المقت . ولا اطيق مثل قول ابى تمام (١) . بيض الصفائح لا سود الصحائف . ويخيل الى انها من قبيل الجمل التى نضعها للسكارى لنعرف مدى ما بلغت بهم الخمر . ومع ذلك أرانى اقبل من المعرى قوله فى الفصول والغايات : « بيض غيد ، حرمت العيش الرغيد » . ويقول : « وسوداء تسود تعيش عيشة المحسود » . ويقول فى اللزوميات :

---

(١) يقول المعرى فى رسالة الغفران من شعر ابى تمام . (اما الاصل فعربى ، واما الفرع فنطق به غبى . وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب ... انما ينكر عليه المستعار وقد جاءت العارية فى اشعار كثير من المتقدمين الا انها لا تجتمع كاجتماعها فى ما نظمه حبيب بن اوس) .

كم أمير أمِر فى عاصفات بعلما حاب فى الحياةوحابا(١)

ويقول فى اللزوميات :

أسطرلاب حولهن جهول فهو يرجو هدياً بأسطرلاب(٢)

والغرض من بحثى هذا ان أبين سر رضائنا عن مثل هذا القول واغضائنا عن عيوبه . على حين أننا لا نقبل من غيره ما هو أجمل وارق . ولا بد أن تكون فى أدب المعرى صفات اختص بها وحده هى سر اعجابنا به ، وقبولنا اياه ، مع ما فيه من شرود ، هذه الصفات التى تحببه الينا تحتاج الى تحليل .

هذا التحيز الحديث الى ادب ابى العلاء لا يرجع الى موضوعاته فحسب ، ولا الى عمق التفكير فيه ، ولا الى جمال أسلوبه . فقد عرف ذلك كله عند غيره . فلم يبلغ قائله من نفوسنا ما بلغه أبو العلاء . فموضوعات أدبه من زهد وتشاؤم واحتقار لآمال الناس وأمانيهم ، وما فيها من تأكيد لما يكون عليه الناس من غرور وجهل وظلام ، وما يتحدث عنه من حيرة العقل فى فهم الكون وتخبطه فى معرفة الحقيقة ، كلها أمور سبق للكثيرين الخوض فيها . والموضوعات التى يتناولها الأديب ليست سر عظمة أدبه . وكثيرا ما نعجب بالمجون كما نعجب بالزهد . وتطربنا بهجة السرور كما يحركنا عمق التشاؤم ، وقد يعجبنا الأدب الغارق فى شهوات النفس المتصل بالحياة إتصالا عنيفا عارما ، كما نعجب بالانصراف عن الحياة واحتقارها ، والتغلب على شهوات النفس . فليست الموضوعات التى يتناولها الأديب عاملا قويا فى اكبار شأن أدبه .

---

(١) أمِر : اثير التراب عليه . حاب : انزلق الى الاثم ، وحاب الثانية من المحابة

(٢) يعنى ان الجهول يتعطش الى الاسطر المكتوبة ، راجيا ان يهتدى بهـا مثل الفلكيين الذين يهتدون بجهاز الاسطرلاب .

ولا نزاع ان أبا العلاء من أعمق رجال الأدب العربي تفكيرا ، وقليل ثمن كتاب العرب من بلغ شيئا مما بلغه المعرى فى هذا الباب . وقليل منهم من خطر له أن من الادب أن يفكر الاديب فى العالم والانسان وحسبوا ذلك من أعمال الفلاسفة لا الادباء . وليست الحكم والمواعظ والامثال دليلا على التفكير ، واغلبها سطحية لا تمتاز الا بتركيز عباراتها .

ومع كل ذلك فانني لا اظن ان عمق التفكير هذا سبب من أسباب تعلقنا بأدب المعرى وتغاضينا عما فيه من عيوب . ولا يرجع اعجابنا بادب المعرى الى شيء من ذلك . وانما يرجع الى صفة خاصة يقاس بها الأدب الرفيع ، لا تتعلق بالموضوع أو عمق الفكر أو جمال الاسلوب ، وان يكن ذلك كله من مقوماته . هذه الصفة التى يبلغ بها الأدب أرفع مراتبه هى قوة التعبير . والقوة تكون فى الصدق والدقة ، على أن تكون تلك القوة التعبيرية غير واعية ، وما يقوله الأديب نصا صريحا مهما يكن عظيما لا يرفع من أدبه الا الى قدر محدود . وانما ترفعه دلالته غير الواعية ، دلالة قوية صادقة دقيقة على نفس الأديب أو بيئته أو على النفس الانسانية كلها ، وهذا سر حبنا للمعرى واعجابنا به .

واذا كان ادب المعرى يملأ حياته كلها فان اللغة العربية ملأت أدبه كله . هذه ظاهرة عجيبة . فاللغة لم تكن عند المعرى وسيلة يتحدث بها الى الناس فيفهمونه ويفهمهم ، كما هى عند الناس جميعا ، ولم تكن مجالا يتمثل فيه فنه ، كما هى عند الأدباء قاطبة ، يظهر فيها فنهم كما تظهر فنون غيرهم فى التصوير والنحت والموسيقى . وانما كانت اللغة عند أبى العلاء هى كل فنه مادة وروحا ومجالا . قصر حياته وأدبه ـ وهما شيء واحد ـ على اللغة العربية . فهى معشوقته ورفيقته ، وهى كل لذته وكل علمه وكل عمله . وغرامه بها هو الذى حمله على الا يترك شاردة منها الا وعاها ، واستطاع أن يعرف عنها كل ما يستطيع انسان أن يعرفه ،

ومن هنا كان غرامه بعلومها وافتتانه بغريبها ، وتلمس كل ما كان فيها صعبا معقدا .

وليس ذلك غريبا على ادباء العرب . واكثرهم قضى عمره لا يعرف شيئا غير اللغة . كان ذلك نكبة نكب بها هؤلاء الأدباء فى عصور طويلة فى تاريخ الأدب العربى . ولم يقع المعرى فى مثل هذه النكبة على شدة غرامه باللغة .

والفرق بينه وبين غيره من الأدباء أن هؤلاء كان علمهم باللغة سدا بينهم وبين الحياة ، حجبهم جمال اللفظ عن أن يروا ما فى النفس البشرية والحياة الانسانية والعلاقات بين الناس من جمال وروعة . اما أبو العلاء فكانت اللغة عنده نافذة أطل منها على الحياة وكأنه أصبح يرى الحياة من خلال اللغة . عرف العواطف الانسانية ومشكلات الحياة من طريق اللغة وأدبها . وهى من غير شك نافذة ضيقة يصعب أن يرى منها الانسان أسرار الحياة ، ويعسر على أكثر الناس أن يبلغوا من هذه النافذة علما بالحياة يكفى لدقة تصويرها . ولكن حدة الذكاء جعلته يستطيع ما لم يستطعه أحد قبله أو بعده من جعل اللغة وعلومها سبيل العلم بالحياة وأسرارها .

ومن الأمور التى تدل على ذلك دلالة واضحة ظاهرة عجيبة فى أدب أبى العلاء وهى كثرة تشبيهاته المستمدة من اللغة وعلومها . ويكثر ذلك فى اللزوميات . وبصفة خاصة فى أول اللزوميات . واحسب أن التشبيهات اللغوية تقل فى اواخر اللزوميات بعد أن استقر اسلوبها وأصبح نظمها عليه أسهل ، وحريته فى تاليفها أكبر .

وامثلة ذلك كثيرة . من ذلك قوله فى العزلة ، فهو يشبه العزلة بالبيت المفرد لا تقع عليه عيوب القافية كالاسناد والاقواء .

كالبيت أفرد لا إيطاء يلحقه ... ولا سناد ولا فى اللفظ إقواء

وهو يشبه بعده عن التلبس وعدم الفته اياهم بما يقع فى اللغة من استحالة الجميع بين الذال والظاء .

فلست لهم وإن قربوا أليفا كما لم تأتلف ذال وظاء

وهو يقول انه مقيد كما قيدت قاف رؤبة ، يشير بذلك الى قول رؤبة فى رجزه المعروف (وقاتم الاعماق خاوى المخترق) حيث القاف مقيدة بالسكون .

مالى غدوت كقاف رؤبة قيدت فى الدهر لم يقدر لها إجراؤها

وهو يصف الزمان فيشبهه بقصيدة لم يقدر الشاعر على (ايطائها) .

وكأنما هذا الزمان قصيدة ما اضطر شاعرها إلى إيطائها

وفى نثره اشارات كثيرة من هذا الطراز . من ذلك قوله فى الفصول والغايات (واذا تقويت لفعل الحسنة أقويت) . يشير بذلك الى الاقواء فى القوافى، وهو اختلاف اعرابها فى الأبيات المختلفة . ويقول (ومتى انكفات الى الخير اكفات) يشير بذلك الى الاكفاء فى الشعر ويقول (من كان ذا عقل ببسيط فهو كالجزء الثالث من البسيط) وهو اصطلاح عروضى .

وبعد ، فماذا تدل عليه هذه الظاهرة التى اختص بها أدب أبى العلاء وحده . الرأى عندى أن المعرى كان يستخدم الحقائق اللغوية فى شعره كما كان الشعراء الأوربيون يستخدمون الميثولوجيا الاغريقية . ولعله ليس من الاسراف أن نسمى هذه الظاهرة فى أدب المعرى الميثولوجيا اللغوية . وكانوا لا يفتأون يضربون الأمثلة ويذكرون تشبيهات واستعارات كلها مستمدة من أساطير الاغريق . وعلة ذلك أن أساطير الاغريق كانت مثلا اعلى للشعر الجميل وأكثر وقائعها

نظمها من قبل شعراء سابقون أبدعوا فى نظمها . ولا تكاد نجد عاطفة انسانية أو موقفا جميلا من مواقف الحياه كالحب والغضب والبطولة والتضحية والغيرة الا كان له فى هـذه الأساطير مثل رائع جميل . فكان شعراء أوربا يجدون فى هذا الميدان الخصب كل ما يريدون ، وكان لا يعجبهم ان يستمدوا الوحي من أحداث وقعت فعلا . وكان الراى السائد اذ ذاك أن الحياة قديمها وحديثها أقل قدرا من أن توحى شعرا جميلا او تعبيرا عن احساس رائع . ومن أسباب كثرة الاشارة الى الميثولوجيا الاغريقية عند شعراء أوربا فى بعض العصور ان ذلك كان يدل عـلى الثقافة العالية . فلم يكن الرجـل يوصف بالثقافة حتى يكون عالما بهذه الأساطير متعمقا فى تفاصيلها . وكان هـذا الراى سائدا الى عهـد ليس بالبعيد . ولم يشذ عن هذا الا شاعر الانجليز الأكبر ، لقد كان علمه باللاتينية قليلا وباليونانية أقل. وكان هذا مثار عجب الناس جميعا . اما شاعرهم الثانى (ملتون) فكان من أكثر أهل زمانه علما بهذه الأساطير وذكرا لها فى شعره .

لمثل هذه الأسباب أو قريب منها كان المعرى يكثر من التشبيهات اللغـوية والنحوية (١) اذ كانت اللغـة عنـده أكبر مصـدر لعلمه بالحياة . وكان طبيعيا أن يلجأ الى اللغة التى يعرفها حـق المعرفة يلتمس فى علومها مصادر للتشبيه والاسـتعارة . وكانت معرفة اللغة اذ ذاك غاية الثقافة والعلم . على أن المعرى كان فى موقف أشد حرجا من اضرابه الاوربيين لأنهم يستمدون وحيهم من شعر جميل وهو يستمد وحيه من علم جاف لا جمال فيه .

على أنه اذا كانت هذه الميثولوجيا اللغوية تفسر كثرة هذا النوع من القول فى أدب أبى العـلاء فانها لا تكفى لشرح ما لهـذه الصفة الخاصة من دلالات عميقة تتعلق بحياته وعقليته .

---

(١) قارن بين هذه التشبيهات اللغوية الغريبة الغريبة بقول المتنبى :

إذا كان ماتنويه فعلا مضارعاً مضى قبل أنْ تُلْقى عليه الجوازم

ولشرح ذلك أقول ان التشبيه عند غير المبصرين نوعان : يكون تارة مما يفوقون فيه المبصرين كالليل الذى تهاوى كواكبه . وهذا هو التحدى . وبشار بن برد فى قوله هذا يتحدى الزمن والناس فيقول ما لا يقدرون عليه وهم مبصرون . ولم يكن فى بشار أثر مما يسميه الناس اليوم مركب النقص .

والنوع الآخر هو التشبيه بالمعنويات التى يستوى فيها المبصر وغير المبصر . وأذكر مثالا لذلك قصيدة صغيرة يصف فيها الشاعر الثلج الذى يتساقط من السماء لطفل ضرير فيقول :

انه أبيض يا عزيزى كرداء الملائكة
ابيض ابيض ابيض (١)
انه خفيف يا عزيزى كالفكرة او هو اخف
خفيف خفيف خفيف
وهو يسقط يا عزيزى من السماء المثقلة
بطيئا بطيئا بطيئا
يسقط وأنا اقبل عينيك
هكذا هكذا هكذا

لهذه القصيدة الصغيرة اثر بالغ فى نفس الانسان لصدق عاطفتها

---

1. It is white my dear as angls' dress,
white, white white.
It is light, my dear, as a thought or less;
light, light, light,
It falls, my dear, from the heavy skies,
slow, slow, slow.
Even as I kiss your eyes,
So, So, So,

وقـوة تعبيرها . وهى تثير فينا حزنا عميقا على الشاعر وهو على الأرجح والد هذا الطفل ، وعلى هـذا الطفل الذى وصف به الثلج وصفا يستطيع أن يفهمه . فنحن والطفل الضرير سـواء فى فهمنا لبياض رداء الملائكة . ونحن وهو سواء فى فهمنا لخفة الفكرة فى ذهن الانسان . وفى اختيار مثل هذا النوع من التشبيه ما يجعله شديد الأثر فى نفوس سامعيه .

ويرجـع هذا الأثر الى صـدق التشبيه بالمعنـويات عند غير المبصرين وعمق دلالته . وكذلك تشبيهات المعرى التى نحن بصددها . فهو يقول : انه مقيد كقاف رؤبة . وقاف رؤبة هنا من ناحية الدلالة التعبيرية تعادل رداء الملائكة فى القصيدة الصغيرة . ولم يكن للمعرى أن يقول انه مقيـد قيد برومتيوس الى الصخرة تأكل النسور من كبـده . هذا تشبيه يستطيعه الشـاعر الأوربى العـالم بأساطير الاغريق . والاختيار هنا يرجع الى ما علمناه من أن علوم اللغة كانت مصدر علم أبى العلاء بالحياة .

واذا كان الليل الذى تهاوى كواكبه قولا يتحدى فيه الشاعر الزمن والنقص الذى فيه ، فقـول المعـرى يدل عـلى الاستسلام والخضوع والتواضع . ومن الاستسلام ما يكون أكثر شجاعة من التحدى (ولو كان المتحدى هو الزمن نفسه) ومن الخضوع ما يكون غاية القوة كالخضوع للدين والأخلاق والقـانون . ومن التواضع ما يكون أقصى درجات الكبرياء . واذا كان تحدى بشار للزمن مما يعجب الكثيرين ، فان استسلام المعرى هو عندى أسمى وأروع . ولكل مزاج محبب اليه .

على ان أروع ما فى آداب أبى العـلاء وأعظمه دلالة على اعماق

نفسه دلالة خفية غير واعية ، هو من غير شك اللزوميات (٢) . هذا التأليف العجيب يدلنا على نفسية أبى العلاء بما لا يدل اى عمل أدبى آخر على نفسية مؤلفه ، وفيه مفتاح تلك النفس التى ارادها صاحبها مغلقة . ومنه نستطيع تحليل عقيدته التى لم يرد لها هو تحليلا دقيقا ولم يشأ أن يطلع الناس عليها . بل لعله هو لم يدرك كنه نفسه ادراكا تاما ، كما ندركها نحن حين نتعمق أسلوب اللزوميات .

وكلنا نعلم اختلاف الناس فى أمر عقيدة أبى العلاء . وهل كان ملحدا أو كافرا ، كما يقول أعداؤه ، او كان مؤمنا كما يقول محبوه. واكثر الناس على أنه كان متشككا ، وانه كان حائرا بين الايمان والالحاد ، شأنه فى ذلك شأن كثير من المفكرين الذين يأبى عليهم عقلهم أن يؤمنوا ايمان العجائز ويأبى عليهم طبعهم وتقديرهم للايمان والأخلاق أن ينكروا الدين انكارا تاما . ولعل أكبر ما أحفظ أعداء المعرى عليه حملته على رجال الدين فى عصره وطعنه فى أولئك الذين يعرضون تدينهم على الناس جهرا يبتغون الزلفى الى عامة الناس فى رياء ونفاق لا يستطيع مثله أن يقرهم عليه . على ان هذا لا يعد فى الواقع الحادا . والقرآن الكريم ينعى على المنافقين مثل ذلك . والاسلام صريح فى انكاره هذا النوع من التدين . وأنكر السيد المسيح على أحبار اليهود فى عصره مثل ذلك .

---

(٢) ذكر المعرى فى مقدمة لزوم ما لا يلزم فصلا طويلا عن عيوب القافية ، ويكفى فى العادة ان تكون القافية (الروى) متعلقة بالحرف الاخير من البيت ، ولزوم ما لا يلزم ان يجعل القافية اكثر من حرف ، مثال ذلك اول قصائد اللزوميات فالقوافى فيها غرباء وقرباء وسباء وحباء وخباء ورباء وصباء وعباء وكباء والثؤباء وهباء واباء وباء وقباء . فالتزامه الباء من لزوم ما لا يلزم لانه كان فى غنى عنها وكان يكفيه قافية الهمزة وحدها . وذكر من عيوب القافية الايطاء والسناد وغيرها من المصطلحات التى لا نرى داعيا لشرحها تفصيلا .

والذى اعتقده أن المعـرى كان بطبيعته متدينا غاية التدين . فالتدين عنده طبيعة كامنة فى النفس وصفة ملازمة لها ، ودليل التدين امران : ان يعمل الانسان اعمـالا صالحه ليس مضطرا الى عملها الا بدافع من نفسه . وأن يمتنع عن أمور سيئة لا يمنعه منها الا وازع من نفسه . فالبوذى الذى يتعبد فى هيكله والمسلم الذى يقوم الى الصلاة فى أوقاتها حريصا عليها ، والمسيحى الذى يعمـد طفله ، واليهودى الذى يبكى أمام حائط المبكى ، كل اولئك يعملون ما لا يلزمهم عمله ، لا يدفعهم الى ذلك الا ايمانهم ، والبراهمى الذى لا يمس بقـرة بسوء ، والمســلم الذى لا يأكل الخنزير ولا يشرب الخمـر ، واليهودى الذى لا يوقـد شمعة يوم السبت ، والمسيحى الذى لا يأكل اللحم يوم الجمعة الكبيرة ، كل أولئك يلزمون انفسهم ما لا يلزم ، لا يمنعهم من عمل ما لا يعملون الا وازع نفسى . وهذا كله تدين لا شك فيه .

فالتدين فى الواقع ليس الا لزوم ما لا يلزم ايجـابا وسـلبا . والمعرى على ذلك من أكثر الناس تدينا ، وأعمقهم ايمانا واخلاصا لأن طبيعته تأبى عليه غير ذلك .

على أن هذا كله أمره الى الله لا الى الناس . وانما الذى يعنينا أن يكون المعرى قد دل على هذه الطبيعة فيه وهذا الايمان العميق دلالة لا شك فيها بالأسلوب العجيب الذى ابتكره فى اللزوميـات . ولا أعرف أديبا غيره بين أدباء العالم وفق هذا التوفيق فى التعبير عن نفسه تعبيرا تاما صادقا غير واع ولا مقصود .

وقد يشبه المعرى فى لزومه ما لا يلزم كثير من الزهاد والمتصوفين والرهبان . ولكن احدا من هؤلاء لم يملك عليه زهده نفســه حتى يجعله يلتزم ما لا يلتزم فى شعره . وليس ادل على ما اذهب اليه من أن المعرى عاش ادبه ، وجعل حياته كلها مقصورة على ادبه . ليس ادل على ذلك من اللزوميات فى صياغتها لا فى ما تحويه من زهد أو وعظ أو تشاؤم او شك . ولعل شكه كان مقصورا على فكره وعقله .

اما ايمانه بلزوم ما لا يلزم فهو دليل على التدين الكامل فيه . وقد اظهره على هذه الصورة القوية دون أن يريد ذلك ارادة واعية .

هذا هو مغزى اللزوميات ، ولعله كان يحسبها مرانة على الصعب من النظم ، ولعله كان يريدها برهانا على تمكنه من اللغة التى احبها ، فاذا هى دليل قاطع على قرارة نفسه التى حرص حياته كلها على الا يعرضها على الناس . فاذا هى واضحة كل الوضوح من جراء هذا الأسلوب فى التأليف .

هذا هو سر عظمة المعرى تفكيرا وادبا . ويزيد اعجابنا بأدبه أنه اتخذ الى هذا الأدب سبيلا ضيقا هو العلم باللغة التى لم يعرف الدنيا الا من خلالها ، ومع ذلك عرف الحياة والطبيعة البشرية خير معرفة ، ودل عليها بألوان من الادب خاصة به لم يفكر فيها غيره .

والمعرى كنز أدبى وذخر لنا سنحرص عليه دائما ؛ ولعله من الصعب أن نجعل منه أديبا عالميا لشذوذ سبيله الى العظمة الأدبية اذ كان هذا السبيل هو اللغة العربية وعلومها . ولا ينقص من قدر أدبه أن غيرنا لا يشاركنا فيه ، وأن نكون نحن المتكلمين بالعربية وحدنا قادرين على أن ندرك قيمة هذا الكنز العقلى . ولعل ذلك يكون أقوى الأسباب التى تدعونا أن نكون أشد الناس حرصا على أدب المعرى وتقديرا له .

فهرس

صفحة

مقـــدمة ٣
الملقـــات ٧
عمر بن ابى ربيعة ٢٠
نماذج من شعر الطبع (ديوان الحماسة) ٣٣
شـعر الاحتراف ٥٥
تحول الشـعراء فى عصر الأمويين ٦٣
الفرزدق ٦٩
جرير ٧٥
بشار بن برد ٧٧
النابغة الذبيانى ٧٩
ابو نواس ٨٧
الموسيقى .. والتصوير فى الشعر العربى ٩٣
الموسيقى فى الشعر العربى ٩٧
المتنبى ١١١
المتنبى فى مصر ١٢١
الحكمة فى شعر المتنبى ١٣١
ابو العلاء المعرى ١٤٣

« طبع بمؤسسة دار الشعب »

● **المراسلات :**

التحرير : ١١١٧ كورنيش النيل « ماسبيرو » تليفون ٩٧١٠٥٦

الادارة : ٢٦ شارع منصور « باب اللوق » تليفون ٣٣٩٧٦ ٣٣٩٧٧ (صندوق بريد ١٣٢٨)

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة تليفون ٣٣٩٧٨

دكتور

محمد كامل حسين

يجد المثقفون المعاصرون صعوبة فى فهم الشعر العربى ولا يتذوق جماله الا قلة من المختصين فى دراسة الأدب وهذا نقص كبير فى الثقافة العربية الحديثة ، وللمحدثين بعض العذر فى انصرافهم عن الشعر لأننا نقدم لهم شعرا لا يمت الى حياتهم الفكرية بسبب . وهم يجدون فيه مبالغات غير مقبولة عندهم ، وتشبيهات متكلفة واستعارات بعيدة ، ومحسنات لفظية ومعنوية يأباها الذوق العصرى . ثم انهم لا يجدون فيه ما يشبع رغبتهم فى جمال القول ، ولا يجدون فيه تحليلا للعواطف الانسانية ، ولا لعواطف الشاعر نفسه . وهم يرون أن الشعر العربى صناعة خاصة قوامها المهارة والافتنان فى القول ، وكل هذا بعيد كل البعد عما يرجوه المثقفون من الشعر . وليس لنا أن نعيب على العرب اعجابهم بهذا النوع من القول . ذلك أن وظيفة الشعر فى الحضارة العربية تختلف اختلافا بينا عن وظيفته فى الحضارات الأ[illegible] عصر ذوقه الخاص ، وعلينا أن نحسن اخ[illegible] الى المتأدبين من هذا الشعر ، وان ندرس[illegible] حديثة تقوم على البحث فى شخصية الش[illegible] نفسيته فتصبح بذلك دراسة الشعر درا[illegible]

وقد حاولت فى هذا الكتيب أن أدر[illegible] العربى دراسة حديثة وأن أقدم نماذج من [illegible] يمكن أن يحتذيها النقاد بعد ذلك فيكون ت[illegible] للشعر أكثر عمقا واتقانا من محاولتى هذه[illegible]

Bibliotheca Alexandrina
0678488

طبع بمؤسسة دار الشعب

الثمن ٣٠ قرشا